أمين الزاوي

حُرّ بن يقظان

رواية

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

حُرّ بن يقظان

مكتبة الحبر الإلكتروني
مكتبة العرب الحصرية

طبع في لبنان

حُرّ بن يقظان

رواية

أمين الزاوي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1439 هـ - 2018 م

ردمك 978-614-02-4236-4

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

9 شارع محمد دوزي برج الكيفان

الجزائر العاصمة

هاتف 0776616609

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص

مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

الإهداء

إلى مجنوني قريتنا:
"عثمان" و"الحسن تاع الثلاثا"،
كنتما ملاكيْن.

أمين

عتبة أولى:

واعلمْ أنَّ كلَّ نفسٍ ذائقةُ الموت، ولكن ليست كُلُّ نَفْسٍ تذوق الحياة!

جلال الدين الرومي

عتبة ثانية:

"Je ne laisserai jamais personne dire que vingt ans est le plus bel âge de la vie"

Paul Nizan

1

أنا حُرّ بن يقظان.

أنا الرّوخو ابن أمه.

يحملني جُرح على جناحَيْه منذ الصغر.

2

أنا حُرّ بن يقظان...

لا أحدَ منّا مُحصَّن ضد ضربة حُبٍّ عنيفة، ولو لمرةٍ واحدةٍ في العمر، وقد تجيء هذه الضربة متأخرةً بسبعة عقود، لا يهم، ضربة الحب كضربة الشمس قد تكون قاتلةً، الحب كالشمس له قوة أشعة نادرة، إنه الطاقة المتجددة والفتاكة ببهجة.

يشيخ الجسد حين يفقد الطاقة على الحُلم لا حين يصعد في سلّم العمر سنوات، ومعه تتعدد أعياد ميلاد المرأة أو الرجل، وتتوالى وتتكاثر الشموع على قطعة الحلوى، ويكثر الأبناء والأحفاد والمكالمات الهاتفية والرسائل المهنّئة بعبارة باردة: "عيد ميلاد سعيد، كل عام وأنت بصحة..." كلامٌ بدون قلب.

شيخوخة القلب هي نهاية الجسد، حين يتوقَّف القلب عن الانتباه يتوقَّف الجسد عن الإبداع.

ولكل عمر عسله، وله نحلُه وله لسعه.

الحياة كقَوْس قُزَح، مِروحةٌ من الألوان المختلفة المتوازية والمتعامدة.

اسمي، حُرّ بن يقظان.

3

أنا حُرّ بن يقظان.

أنا الروخو، آكسل بن إسحاق السنوسي حفيد أبراهام الزندلي جهة الأم، حين أُفكِّر في سلالتي التي نزلتُ منها، لست أدري لماذا أجِدُني أفكِّر جهة الأم والأخوال أكثر ما أفكِّر جهة شجرة الأب والأعمام، أمي "أسافو" وهو اسم أمازيغي يعني الشعلة، كانت شعلة ولهيبًا، يسعدها أن تفتخر الافتخار الأكبر بأنها حفظت سبعة أحزاب، وكثيرًا من قصائد الشعر الكلاسيكي عن الحب والهجران على يد زوجها، وأنها تعلمتُ على يد مربـي خيله يعقوب عسل- الزمن الكتابة والقراءة باللغة الفرنسية، وتعلمتُ أيضًا منه الحساب ولعبة الورق الإسبانية "الكارطا"، وأمي حين تحكي عن يعقوب عسل- الزمن يحمرّ وجهها، تبدو مرتبكةً كطفلة صغيرة تُنزِل نظرها بين قدمَيْها، بين العبارة والأخرى، تأخذ نفسًا، تتوقَّف قليلاً عن الكلام كأنما تستعيد الربط بين صور مُشوَّشة لشريطٍ مُتقطِّع.

"هذا الرجل دوّخ أمي، أكل مخها".

هو الوحيد الذي كان يسمح له أبـي بأن يساعدها على ركوب الحصان، أن يرفعها إلى السرج، ولكي تصل إلى مكانها على ظهر الحصان الأزرق، كان يعقوب عسل ـ الزمن يحني ظهره بكتفين عريضين فتصعد فوقهما بتوازن مُشوَّش كي تصل ظهر المركوب، بلطف يضع لها رجليها الصغيرتين اللتين تشبهان رجلَيِ الدمية البلاستيكية في رِكابيِ السرج، وحين يستقيم جسدها الناعم فوق السرج يفرح يعقوب كثيرًا، يمسح زجاج نظارته السميك، يرتجف قلبه مخافةَ أن يهجّ الحصان في الطريق الترابـي فيرمي بها إلى الأرض، كان يأخذ الحصان من لجامه ويقوده عشرات الأمتار حتى تجد أمي توازنها فوق السرج ثم يطلق لها العنان، فتتولى القيادة بمفردها، بعد جولةٍ في الأنحاء

تدوم نحو الساعة، تعود أسافو بالحصان إلى الإسطبل وهي مبتسمة، قطعة من فرح على ظهر الحصان، يكون يعقوب عسل- الزمن في انتظارها وهو الوحيد الذي يحتضنها، يأخذها من نصفها، يشد خاصرتها وأسفل ذراعيها ليساعدها على النزول من على ظهر الحصان الذي سمّاه باسم أحبِّ شاعر إلى قلبه وهو رامبو، كانت أسافو تنتظر تلك اللحظات التي يحتضنها فيها يعقوب وهو يضمها بين ذراعيه متلقفًا جسدها الناعم من أعلى السرج كي تشم رائحة العرق المنبعثة من جسده المفتول العضلات، رائحة فيها من الأعشاب البريّة ومن تراب الأرض النديّة، رائحة عرق الرجال الفحول لا تُقاوَم، هي أكثر نفاذًا وقوةً وإثارةً من أفضل العطور المُحضَّرة في أشهر وأعرق المخابر الباريسية.

وكان هو الآخر، من جهته، مخمورًا، منتعشًا بعطر ماء الورد الذي تصبه على صدرها وأسفل رقبتها كلما همَّت للنزول إلى الإسطبل كي تمارس درس الفروسية، يحدث ذلك يوميًّا في فصلَيِ الربيع والصيف، وثلاثَ مراتٍ في الأسبوع في فصلَيِ الخريف والشتاء، المرات حسب طبيعة لون السماء.

أيّ فروسية هذه يا أمي؟ ركوب الخيل من ركوب الرجال، متعة يكاد عسلها أن يكون من شهدٍ واحد، بين هذا الركوب وذاك مسافة المتعة ليست بمتفاوتة.

حضن الرجل كظهر الحصان.

وبقَدْر ما كانت أمي تتحسَّن فراسَتُها شيئًا فشيئًا وتزداد فروسيتها، بدَا مُتجليًا ذلك في طريقة جلستها المتّقدة على السرج المُذهَّب، وطريقة الوقوف على ظهر يعقوب عسل - الزمن المركوب الأول وهي تستعد للقفز فوق ظهر الحصان المركوب الثاني، كانت تغرق في تفاصيل علاقتها مع يعقوب عسل- الزمن.

وحتى رامبو الحصان ازداد بهجةً وجمالاً وطاعةً وغيّر من إيقاع هرولته، هرولة يريد منها أن تكون نارًا هادئةً عليها يُطبخ جسد أمي، كان الحصان متواطئًا مع أمي وفي الوقت نفسه مع يعقوب عسل-الزمن.

ومع ذلك، فأمي التي عُرفت بركوب رامبو ركوبًا خاصًّا، وبطلاقة لسانها حين تتحدث باللغة الفرنسية، وبيعقوبها المسالم الطيب الذي تستعين بظهره منصةً كي تصل إلى سرج الحصان،

وبجمالها المثير الذي خلَّف حكاياتٍ كثيرةً وغريبةً نُسجت على الأفواه المفتوحة في الأسواق والمقاهي والحفلات، يقال إنها لم تُغادر بيتها الزوجي، بيت إسحاق السنوسي، إلا قليلاً؛ لتمارين الفروسية، من الإسطبل إلى المزرعة، من ظهر يعقوب إلى ظهر رامبو، ومن ظهر رامبو إلى أحضان يعقوب عسل ـ الزمن، أو لزيارة بيت أهلها لأمها في قرية أربوز التي تقع على بُعد بعض كيلومترات من بيت الزوجية الموجود في هذه القرية الغريبة التي تُسمَّى "التفاحة".

تأسستْ هذه القرية في البداية من حُوش كبير أقام فيه الجد الأول والأحفاد وأولاد وبنات الأحفاد، ثم جاء بعض الغرباء مع مواشيهم وعلى بغالهم وحميرهم فسكنوا الأطراف، وتوسَّعت القرية، طوبة بعد طوبة، بيتًا بعد بيت، وظل الغرباء في عيون أهل القرية الأصليين يُدعون بـ "البرَّانيّين"، وكان لا يُسمح لأحدهم بالإقامة داخل قرية التفاحة المحمية بحاجز خارجي، وهو عبارة عن صفَّيْن كبيرَيْن من نبات الصبار، إلا إذا أصبح صهرًا، ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن في البداية، فوصية الجد الأول المحفورة على رخامة كبيرة بخط أندلسي بديع، والمُعلَّقة على الباب الرئيسي الذي يُسمَّى "باب الرخامة"، توصي وتُشدد على الحفاظ على دم الشجرة العائلية صافيًا، لكن يبدو أن ما أصاب القرية من كثرة إنجاب الإناث لعَشْر سنوات متتالية جعل العائلات تُقبل أخيرًا على تزويج بناتها بالبرانيّ، خاصةً أن حكاياتٍ كثيرةً بدأت تنتشر عن علاقات سحاقية بين البنات، وأخرى سِريّة بين بنات العائلات وذكور البرانيِّين، لقاءات غرامية في شكل جلسات بين سيقان شجر الصبار؛ حيث أُعِدَّت بعض المخابئ لمثل هذه المواعيد الغرامية، وهكذا اختلط الدم، وشيئًا فشيئًا تمت إزالة صفَّيْ شجر الصبار.

يروي البعض أن سقوط سقف ضريح الجد الأول مؤسس قرية "التفاحة"، وصاحب الرخامة، وكاتب نصِّ الوصية بخطٍّ أندلسيٍّ جميل، كان متزامنًا مع ليلة الاحتفال بأول زواج حفيدة من حفيداته، وتُسمَّى هي الأخرى "تفاحة"، بشابٍّ براني يُسمَّى "صابر"، ويُعتقد بأنه العُرس الذي فتح شهية الأخريات.

حين تضاعف عدد البنات العازبات ممَّن تخطت أعمارهن الثلاثين بل ويزيد، وهاجت أجسادهن وتشوَّكت أعضاؤهن الحميمة، الأمر الذي دفعهنَّ في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك إلى إقامة حفلة رقص على طريقة الدراويش وناس الحضْرة، وقد ملأن سماء القرية حتى الفجر بالزغاريد، لتنتهِ الحفلة ويطلع الفجر وتحين ساعة الإمساك برفع الرخامة المُثبَّتة

على باب القرية الرئيسي وتثبيتها على باب ضريح الجد الأول الذي تم ترميم سقفه، ومع رفع الرخامة تم الإعلان الرسمي عن الانتهاء بالعمل بوصية الجد المؤسس وتناسيها، وقد بدا ارتياحٌ كبيرٌ على ساكني القرية من الذكور والإناث لما قامت به البنات اللواتي تجاوزَتْ أعمارهنّ سن الزواج المتعارف عليه من إقدامهن على إنزال الرخامة؛ فالجميع يعلم أن حالهنَّ قد ساء، وأجسادهن هاجت، ونفوس بعضهن أصابها القنط، ونبت بُثُورٌ وفطْرٌ غريبٌ على أطراف أعضائهن الحميمة، وعَرَفت القرية أول انتحار ثم تتالت أخبار المنتحرات، وبمجرد أن سقطت الرخامة، وقُطعت أشجار الصبار، وحفر الأهالي بئرًا جديدةً على الأطراف، عادَ الفرح إلى القرية ونسِيَت البنات الانتحار، وظهرت مُغنِّية بصوت ساحر لتحيي ليالي القرية، وغُرست أشجار مثمرة في الأزقة، وبدأت قوافل السحرة من اليهود المغاربة وأهل جربة من بلاد تونس تتوافد على القرية، وعظُمَ شأنهم، وزاد مالهم، وارتفع الاحتفاء بهم، وتعددت وصفات لزواج العازبات، وفي فترة قصيرة نسي الأهالي حكاية العازبات، وبدؤوا في الحديث عن شيءٍ مخيفٍ آخرَ هو الحرب التي تُسمع أصوات مدافعها على أمواج جهاز الراديو الوحيد في القرية، جهاز ترانزستور يشتغل ببطارية عريضة عليها صورة أسد فاتحٍ فمَه وهو يزأر وفي عينيه حنَق أو غضب شبقيّ: اندلاع الحرب بين العرب واليهود.

لماذا رفع الناس جميعًا أسماعهم المُوجَّهة إلى جهاز الراديو فجأةً ونظروا إلى يعقوب عسل - الزمن الذي انسحب من الشمل حزينًا، لقد اعتقد البعض أن الحرب على أبواب قرية التفاحة، مُعلِّقين: "ما إن تنفسنا الصُّعَداء من حرب التحرير ضد العسكر الفرنسي التي دامت سبعة أعوام، حتى ندخل وباء حرب أخرى".. "الحرب مُرّة ومُخيفة"، ولكن أمي التي تستمع إلى الأخبار بالفرنسية على محطة إذاعية أجنبية، طمأنَتْهم بأن الحرب الجديدة هذه المرة هي على حدود مصر وسوريا والأردن.

في اليوم التالي بحثت أمي عن ظهر يعقوب عسل- الزمن كي تستعملها منصةً للصعود إلى سرج رامبو فلم تجده، ألغت ساعة التدريب وعادت إلى غرفتها حزينةً وقلقةً على غياب عسل - الزمن، على خيانته، الانسحاب خيانة لها وللحصان رامبو، مرت ثلاثة أيام وبعدها أيام أخرى، لقد تأكد اختفاء يعقوب عسل - الزمن فلم تعُدْ أمي أسافو تشتمُّ بمتعةٍ رائحةَ العرق التي لطالما عبقت بالإسطبل وبالمراح أيضًا.

حزنت أمي عليه ثلاثة أشهر، وانتظرت عودته، ولم تفقد الأمل على الرغم من عزلتها التي ازدادت، وقد عوّضَت ساعة ركوب الحصان بساعة من العزف على العود، وانتهت الحرب التي لم تدُمْ أكثرَ من ستة أيام، ومضت ستة أشهر ولم يظهر ليعقوب عسل - الزمن أثر.

وحين حاولَتْ أن تعود إلى تمارين ركوب ظهر رامبو، بمجرد أن شَعَر الحصان بأمي كئيبةً تلك الظهيرة، بعد أن اقتنعت بأن يعقوب عسل-الزمن لن يعود إلى قرية التفاحة، رفض أن يُسلمها ظهره وسرجه، وبدا حَرِنًا؛ فتعذَّر عليها ركوبه، فظهرُ وسرجُ الحصان رامبو للبهجة لا للكآبة، وهكذا عادت أمي لتغلق على نفسها في غُرفةٍ مظلمة، حيث لا يُسمع سوى عزف عودها وصوتها الجريح يرفع أغنياتٍ مُطفَأة.

منذ أن اختفى يعقوب عسل- الزمن مع نزول خبر حرب العرب مع اليهود، لم تغادر أمي أسافو غرفتها للذهاب خارج البيت سوى مرتين، كانت الأولى للذهاب إلى المقبرة لزيارة قبر والدها بعد ثلاثة أيام مِن دفنِه، علمَتْ بموته دون أن يخبرها أحد بذلك، قامت في الصباح، نادت عليَّ، أسرعتُ إليها، وجدتُها تُدقِّق في ملامح وجهها في مرآة صغيرة، إطارها البلاستيكي الأخضر قد اسودَّ الغبار على حوافّه.. حين شعَرَت بـي واقفًا خلفها، ولمحَتْ وجهي منعكسًا في المرآة بين يديها، قالت لي مُزمجرةً: "أنت لست من رحمي".. ثم ألقت بالمرآة على الأرض، تناثرت شظايا الزجاج، قلتُ "خيرًا"، حاولتُ أن أعانقها فامتنعَتْ، وبكتْ، وبكيتُ، لستُ أدري لماذا بكيتُ.

قالت لي: سأذهب للوقوف على قبر والدي وأقرأ عليه شعرًا لرامبو بالفرنسية.

حين خرجتْ، تساءلتُ: "رامبو يقول الشعر؟!!"، كنتُ أُفكِّر في الحصان، لم أُفكِّر في والدها -أي جدي- الذي مات قبل ثلاثة أيام، لكن عبارتها "أنت لستَ من رَحِمي" دوَّختني.

وقفتُ عند عتبة باب البيت الكبير أراقبها وهي تختفي في الطريق الترابـي الضيق المحفوف بالأعشاب الوحشية العالية، تمشي بتمايُل، متأكدٌ أنها تمشي معتقدةً أنها فوق ظهر الحصان رامبو، على عرش يشبه السرج المطرَّز غطاؤه بالنياشين في شكل نجوم خُماسية وسُداسية وثُمانية وأقمار وشموس، تشدُّ الحصان من حبل مربوط إلى لجام نُحاسيّ.

"رغوة الحصان الفائضة على أطراف فمه وهو يعَضّ على اللجام مثيرة لشهوة الجنس".

في المساء عادت، ومن يومها لم تغادر غرفتها حتى أسلمت الروح وهي تُردِّد:

"لقد خدعني يعقوب عسل-الزمن، عسلُ الرجالِ عسلٌ مرّ".

4

أنا حُرّ بن يقظان، وهذه حكايتي..

النايلية، هي المرأة الأجمل دائمًا، المثيرة للشبق، ونداءٌ سِرّيٌّ للمغامرة نحو الصحاري الغامضة، قد يكون ذلك الرسام المثلي، الذي يُسمَّى إتيان دينيه أو نصر الدين ديني، هو مَن نفخ هذا الشعور من خلال لوحاته عن النساء النايليات الجميلات نصف العاريات بسوالفهن النازلة على ظهورٍ منحوتةٍ من عجين الرغبة.

النايلية غواية.. جسد.. لوحة..

كانت أمي أسافو على علم بتفاصيل علاقة زوجها إسحاق السنوسي الغامضة وغير الشرعية بسلوانة غازلة الصوف.. سلوانة امرأة من حرير..

سلوانة، هذا ليس اسمَها الحقيقي، إنه لقبٌ اختاره لها والدي، وهو يناسبها تمامًا كأنما نُحت لأجلها، لا أحد يعرف اسمها الحقيقي، حتى والدي قرَّر أن ينساه من يوم أعطاها اسمًا جديدًا، وبالفعل لم يعُدْ يتذكره نهائيًّا، حاول مراتٍ في قيلولات الصيف الطويلة استرجاعه فلم يتمكن من تذكُّره، وهو الذي كان يتمنَّى أن ينساه، أن يسقط من ذاكرته نهائيًّا.. وشعر بالسعادة أنه نسيه. وسلوانة اسم عثر عليه والدي في كتاب عزيز عليه عنوانه "دراية النحل وركوب الخيل" كان يقرؤه في الشتاء ويُعيد قراءته صيفًا، وهو كتاب في مجلدين يروي حياة مربـي النحل والخيل من أبوليوس البربري صاحب "الحمار الذهبـي" إلى ابن قنفذ صهر ابن خلدون وصاحب كتاب "أنس الحبيب عن عجز الطبيب"، و"سلوانة" اسمٌ لملكة سُلالة نحل يعيش في بلاد الثلج في الشمال، حيث الليل ستة أشهر والنهار مثل ذلك، يعطي عسلاً أبيضَ يُستعمل في مداواة العميان والطُّرشان، والله أعلم.

جاء أبـي بالجميلة سلوانة من بلاد أولاد نايل، في واحدة من خرجاته إلى تخوم الصحراء بحثًا عن صديق له ضيَّعه أيام الحرب، مخطوف العقل، جاء بها بحجة أن تتولَّى مهمة الاعتناء بالصوف التي تُجزّ من قُطعان الخرفان والشياه مرةً كل سنة، مع مطلع كل صيف، قُطعان يملكها والدي ويتولى الإشراف عليها أحد المُوالين في منطقة بوسمغون غير بعيد عن مدينة المَشْرِيّة.. تتلخص مهمة سلوانة الظاهرية في الاعتناء بالصوف الذي يصلنا سنويًّا في شاحنات كبيرة مكدس في أكياس ضخمة عملاقة من الخَشّ، تقوم سلوانة بتنقِيَته وفَرْزِه ثم غَسْلِه، وبعد ذلك تقوم بتغطيسه وغَمْرِه في أحواضٍ كبيرةٍ ومتوسطةٍ بُنِيَت خصيصًا لذلك فوق السطوح، أحواض الأصباغ السائلة ذات الألوان المثيرة كالأصفر والأحمر والأزرق والزعفراني، ويتم جلب الأصباغ هذه ذات النوعية الجيدة من سوق تجار الأصباغ بحي بوجْلودْ ومن دار الدبَّاغين بفاس، وبعد ذلك يُترك الصوف ليجفّ على السطوح مدة ثلاثة أيام أو أكثر حسَب قوة الشمس.

كان والدي ينتظر بحرارةٍ عالية أيامَ موسم صباغة الصوف، حتى إنه في مثل هذا الموعد يُصاب بما يُشبه الهَوَس، فيُرى وكأنما يُحدّث نفسه، يمشي حافيًا في تراب الساحة، يغرس أصابع رجليه في التراب الحار، ويشرب الشاي كثيرًا، ويدخن أكثر، لقد كانت الرائحة المتصاعدة من أحواض الأصباغ تُحرّك لديه الرغبةَ الجنسيةَ الفائرة، على العكس مما يعانيه من برودٍ ثلجيّ خلال أيام السنة الباقية، فبمجرد أن تصل رائحة الأصباغ أو الجلود إلى أنفه، وهو مُمدَّد في سريره يغالب حمى الأصباغ، يقرأ في كتاب الله أو في كتاب "دراية النحل وركوب الخيل"؛ فإذا هو يُسرع إلى السطح، حافي القدمين، متلهفًا، باحثًا عن سلوانة، يجلس يراقبها من بعيد، يرتجف، يقترب منها وهي منشغلة في شأنها مع أكوام الصوف، يدور حولها كالمجنون وهي رافعةٌ ثوبَها إلى ما فوق الركبتَيْن البيضاوَيْن، حيث يتجلَّى فخذان مصقولان، تدكّ برجلَيْها الناعمتين الصوف داخل الحوض وكأنما تدكّ قلب والدي، تهتز كما في رقصة المتصوفة فيهتز لذلك جسد والدي، تدور حول نفسها فيدور والدي كالخذرف دون أن يتحرك من مكانه! يرتجف.

لا يتوقف عن ملاحقة سلوانة فوق السطوح وهي تدعك الصوف في الحوض، أو وهي تتفقَّد المصبوغ منه والمُعرَّض للشمس، أو وهي تقيس مقادير الأصباغ قبل وضْعها في حوض الماء، فيأخذها من خصرها، لا تفاجِئُها حركاتُه؛ لأنها تكون في انتظار ذلك منه، هي الأخرى كانت بمجرد أن تغمس قدمَيْها الصغيرتين في حوض الأصباغ تشعر بحرارة غريبة تصعد بجسدها قطعةً قطعةً،

تبدؤها من رؤوس أصابعها حتى سالفها الذي يتحرك كمروحة وهي تهتز في الحوض، يحتضنها، تتمنَّع، ثم تهوي في أحضانه، يعصِرها، يُقبِّلها، يرشف من رضابها.

يحلو له أن يلاحقها في ساعة القيلولة، في هذا الوقت حيث لا أحدَ يتحرَّك في قرية التفاحة، الجميع نِيام، لا يسمع إلا ثُغاء بعض الأغنام الباحثة عن ماءٍ أو ظلِّ حائطٍ تلتجئ إليه من لفح الشمس الرصاصية الملتهبة.

لماذا يا ترى ساعة القيلولة؟ مثلُها مثلُ ساعة الفجر، كلتاهما مثيرتان لشهية الجنس؟

يتمدَّدان فوق أكوام الصوف النديَّة، فتبعث الرطوبة في جسدَيْهما رعشةً خاصةً، فيلتحمان ويُحَمْحِمَان.. ومراتٍ يقفز معها داخل الحوض، يأخذها وهي تدعك الصوف ورغوة الأصباغ تصل حدَّ الرّكَب، لا ينتبه إلا وثيابه قد تلطَّخَتْ أطرافها بالأصباغ، حين يصرخان من الشبق، ينتبه لحاله فيجد هيئته كشكل المُهرِّج، الأصباغ على وجهه وركبتَيْه وفخذَيْه وعلى ثيابه، يبتسم وتُقهقه سلوانة بقوة، تُنزل تنورتها ثم تواصل الدعك، وكأنما ترقص لمثل هذه اللحظات. أمَّا والدي فينزل من السطح حيث تكون قد هيأَتْ له ألبسةً أخرى، يرتديها خفيةً وعلى عَجَل في بيت الصابون، يترك تلك المتضمخة بالأصباغ هناك؛ حيث تتولَّى سلوانة غسْلَها حين ينزل الليل.

لأمي أسافو حاسة سمع قوية، هي قادرةٌ أن تسمع صوت الندى، تدرك حتى دون أن ترى أن أرجلاً أربعًا تدعك الصوف داخل الحوض بدلاً من اثنتين، تُميِّز موسيقى الاهتزازات القادمة من السطح بدقة، وحين تصلها حمحمات الشبق، تضع أصبعَيْها في أذنَيْها وتُلقي فوق رأسها ثلاث وسائد ثقيلة، تُغلق باب الغرفة عليها بالمفتاح مُدَّعيةً أنها مريضة، ثم تبدأ في الصراخ.

لا تتكلم سلوانة عن أهلها، وكأنما قُطعت من شجرة، لقد أكل أبـي مُخّها وذاكرتها وأنساها العالم الذي منه جاءت.

حين يسألها البعض عن أهلها، تنظر إلى والدي إذا ما كان من الحضور فتجيب مشيرةً إليه: هو بلدي ومدينتي وأهلي ومآلي، هو السماء التي بها أتلحّف، والأرض التي فيها أُقبَر، والصوف الناعم الذي أدوسه برجليّ.

مع ذلك، حين كبِرتُ، وقد بلغتُ خمس سنوات أو أكثر، وكان يُسمح لي بالصعود إلى السطح، لاحظتُ مراتٍ كثيرةً أنها كانت تبكي كما نبكي نحن الأطفال، وكنت أنزل مسرعًا لأخبر أسافو عن بكاء سلوانة، أدق باب أمي فلا تفتح، لا تُعيرني اهتمامًا، وأُسرع عند والدي فيصعد على الفور إلى السطح، يبقى معها بعض الوقت، يشرب بصُحبتها فنجانَ قهوةٍ أو كأسَ شايٍ، ثم تُسمع قهقهاتُها قادمةً مُلعلعة من السطح؛ فأفرحُ.. كنت أعتقد أن الكبار لا يبكون، وأن البكاء فقط للأطفال.

مع سقوط الأمطار الأولى التي تكون عادةً في نهاية شهر سبتمبر أو بداية أكتوبر، يبدأ موسم طقوس غزل الصوف، ثم أيام لحياكته، يُخلى السطح، وتنزل سلوانة مع بداية تشكُّل السُّحب الأولى في سماء القرية مُعلنةً اقتراب زحف فصل الخريف، يُنصب النول التقليدي في الغرفة المقابلة لتلك التي تقيم فيها أسافو، تقوم بهذه العملية بعض نساء القرية، يتعاونَّ على كل شيء، هو يومٌ غيرُ عاديّ، يومُ حفلٍ خاصّ، يكون نصبُ النول يوم الأربعاء أو الاثنين، ويُمنع منعًا باتًّا نصبُه يوم الجمعة أو السبت، ولا أحدَ يسأل لماذا هذه الأيام وليست غيرها.. قبل نصب النول توضع بعض قِطع السكر ليلاً عند قدم النول كي يأكلها الشيطان ولا يُفسد النسيج.

تُحضر سلوانة كرات الخيوط الصوفية الملونة والطبيعية، تأخذ مكانَها خلْفَ المَنْسَج، ثم تبدأ بأول خيط مع أغنية جميلة وبصوت شجيّ، حين تسمعها أسافو تبكي وتصرخ: "خلُّوا سبيلَها.. إنها تحترق!"

من بين أصابعها تخرج الزربية النايلية المدهشة، ويطلع البرنوس الرجالي والنسائي المثير بدقةِ تركيبة خيوطه بألوانٍ متعامدةٍ أو متوازيةٍ في انسجامٍ رائع.. مع ذلك كانت سلوانة تحرص على أن تَحِيكَ برنوسًا لأبـي ومثله لأسافو غريمتها، كانت تبذل كل ما لديها من قوة إبداع كي تصنع لأسافو أجمل قطعة فنية، لكن هذه الأخيرة ترفض أن تلبس أي قطعة من نسج سلوانة.

ما كان يُثير والدي في سلوانة قرفصتُها خلف النول، جِلستُها التي تشبه جِلسة المتعبدين الصوفيين وفخذاها نصف عاريين، وكذا مِسحة خفيفة من غبار الصوف تعلو حاجبَيْها بشعرهما المُقوَّس المنتوف والمُرتَّب بعناية فائقة، شعرة فوق شعرة، شعرة بجانب شعرة، وحركة أصابعها الرقيقة وهي تتسلل بين خيوط النول دافعةً بخيط كرة الصوف إلى الأعماق، دون أن تخطئَ في اللون أو الطول أو درجة انفراج الزاوية في الرسم، وأسنانها البيضاء وهي تعَضُّ على الخيوط كي تُفرز بعضها عن بعض، دون غضب أو تذمُّر، مبتسمة دائمًا.. عينها على الباب تنتظر والدي كي

يدخل، يطعمها من يديه قطعة بطيخ، أو يُقدِّم لها كأسَ شايٍ مُنَعْنَعٍ.. رغم ضيق المكان بين سدة النول والحائط، كان يحلو لوالدي أن يتسلل خلف النول فيحتضنها، فتصرخ فيه؛ إذ يثير الفوضى في كرات الصوف، في الحقيقة الفوضى الكبيرة التي كان يثيرها ليست في كرات الصوف الملوَّنة بل في جسدها الملتهب.

5

الحياة حكاية..

دقِّق النظر في مسار أي شخص، ستجده ظلًّا لحكاية لها بداية ولها متن ولها نهاية، وربما لا نهايةَ لها، والحكايات كما بصمات الأشخاص لا تتشابه أبدًا، لكل واحدٍ منا بصماته، ولكلٍّ منا حكايته، الحكاية صورة عن القَدَر الفردي كما هي البصمات صورة لا تتكرر، في الحكاية نكتشف الإنسان، وفي البصمات تُكتَشف الجريمة.

مِن على سرير هذه العلاقة الساخنة بين سلوانة النايلية الجميلة التي كأنما هُرِّبت في ليلٍ مُقمِرٍ من الكائنات الأنثوية الساكنة لوحة من لوحات إتيان ديني من جهة، وأبـي ذي الشهية الجنسية العالية، شهية بقوة تيس القطيع من جهة أخرى، جئتُ أنا إلى هذه الدنيا، وُلدتُ على الصوف الرطب، ومن مهرجان الألوان الساخنة خرجتُ وفيه كبِرتُ.

لست متأكدًا من ذلك..

أنا حُرّ بن يقظان.

كلُّ من يراني يقول لي: "أنت شبه سلوانة"، وكنت أشعر بالسعادة لسماع مثل هذا التعليق؛ لأنني كنتُ مغرمًا بها وببهائها وعفويتها وهي تطلق قهقهاتها الطفولية دون نفاق أو تكلُّف.. لا أحدَ قال لي يومًا إني شبيه أبـي.

وقد تولَّت أسافو تربيتي منذ اليوم الأول لمجيئي إلى هذه الدنيا، وهي مَن اختار لي هذا الاسم، سمَّتني باسم جدِّها لأمها: آكسل، وقد حوَّله العرب إلى كسيلة.

الجميع نسي اسمي آكسل وعوضُّوه بـ "الروخو".

أنا حُرّ بن يقظان.

كانت سعيدةً بوجودي.

موازاةً مع انتفاخ بطن سلوانة، شهرًا بعد آخر، كانت أسافو تلعب بدهاءٍ مسرحية الحمل الكاذب، تنفخ بطنها بحزام من صوف، ثم شهرًا بعد آخر تُعوِّضه بحزام أكبر ثم بوسادة، كانت تقوم سلوانة بربطها لها بإحكامٍ وبفنٍّ عالٍ في التمويه حول خصرها كلَّ صباح قبل أن تستعد للخروج لتجلس قُدَّام عتبة البيت كي تُشاهدها النسوة وهي تفتعل ألم الحمل، وتفتعل أيضًا مزاج الحامل، تتقيّأ قُدَّام عتبة البيت عشْر مراتٍ، وكانت لا تتردد في طلب شيء غريب للأكل، فتقول للنساء المحيطات بها: اشتقتُ عنقودَ عنب، أو رمانة، ونحن في شهر مارس.. قطعة شبّ تضعها تحت لسانها، وتارةً أخرى تطلب بكثير من التودُّد مُردِّدةً لمن يمرّ أمامها: "قلبـي في عطر النبـي"، ولم تكن النساء مدركاتٍ ما "عطر النبـي"، ومع ذلك كنّ يُحِطْنها بكثير من العناية واللطف، يُحضِرن لها خليطًا من صفار البيض وزيت الزيتون، تأكل منه مِلعقتين مع قطعة خبز ثم بصعوبة وجهد تتقيَّأ ما في المعدة.

"حَمْلُك صعب يا لالة أسافو! إمّا بنت أو توأم؟" تُعلِّق النساءُ مِن حولها ولا تُعِير كلام المتحدثات انتباهًا، تحمل نفسها وتغادر المكان عائدةً إلى غُرفتها.

بالمقابل، ومع ظهور الحمل الحقيقي وانتفاخ بطن سلوانة، فرضت أمي على هذه الأخيرة عدم مغادرة البيت، أغلقت عليها غرفة النول، وسمحت فقط لوالدي الدخول عليها والمبيت معها متى شاء، وكانت لا تتردد في أن تُطعمها ما ترغَب فيه نفسُها، ولم تكن ترغب في شيء. كانت أسافو تفتعل "حالة الوحم" أمام الجارات فيُحضرن لها ما تشتهيه نفسها، فتُقدِّم ذلك لسلوانة، التي لم يكن وَحمُها سوى رغبة جامحة في الجنس وإبقاء والدي عاريًا في فراشها أكبر وقتٍ ممكن.

حين جئتُ الدنيا، كانت أسافو تريدني أن أكون ذكرًا، فكنتُ كما اشتهت، في حين لم يكن ذلك يشغل بال سلوانة التي كل ما كانت تريده هو أن أبقى في حضنها الدافئ، أرضع حليب ثديها الثريّ، وتنظر في عيوني لتكتشف كيف أكبر وكيف يكبر العالم مِن حولي، والدي كما أسافو، كان يتمناني ذكرًا كي أمشي معه في الأسواق ويتباهى بـي في المجالس!!

في اليوم الواحد والعشرين خرجت لتجلس قُدَّام عتبة الباب، وأنا في حِجْرها. وظلت الأخرى في غرفتها سجينةً، لا تقابل أحدًا سوى والدي الذي رقَّ قلبه لها وهو يراها لأول مرة تبكي بكاء مرًّا، طالبةً ابنَها، راغبةً أن تُقبّله، أن تحضُنَه، أن تُعطِيَه اسمًا من أسماء ملوك الصحراء.. الواقع أن والدي لم يكن مُرتاحًا لهذا التبنّي، كان يريدني أن أكبر بين ذراعَيْ سلوانة وفي حضنها؛ لأن لها صوتًا جميلاً، ولأنها تُحسِن اختيار الألوان، بل أيضًا تعرف العزف على آلة الإيمزاد وتُحسِن قصّ الحكايات الشعبية.. كان والدي يريدني أن أكون مُغنّيًا أو عازفًا كبيرًا.. من أين جاءته هذه الرغبة، والناس من حوله تريد ذريةً من الأطباء والمهندسين والمعلمين ورجال الشرطة؟!

إنني أُشبِهها كثيرًا كثيرًا، كلّ مَن عَرَف سلوانة يشهد على ذلك، أشبهها في الابتسامة، في طول الأنف، في لون العينين المائل إلى الاخضرار، اخضرار زُمرُّدي، ابتسامة ما بين الخجل والمكر.

أقُوم مراتٍ في آخر الليل أو أول ساعات الفجر وأصرخ: أمي سلوانة، وإذا أمي أسافو تأخذني بين ذراعيها وهي تُصِرّ أن أشرب كأسَ ماءٍ بارد، تضمّني إلى صدرها فأشتَمّ رائحة النعناع أو روث الحصان؟

6

سرقتني أسافو من سلوانة في اليوم الواحد والعشرين من عمري، في الحقيقة هي لم تكن سرقةً، لقد كان الأمر مُدبَّرًا بين أسافو وأبـي وسلوانة، هو اتفاقٌ ثلاثيٌّ، عقدٌ اجتماعيٌّ أسري بموجبه تسمح أسافو لوالدي بالعيش مع سلوانة وممارسة جنونه الجسدي معها كما يرغب ويشتهي، وفي المقابل تمنحه ذريةً شريطةَ أن تكون هي مَن يتولى تربيتها، وبالتالي من تكون لها قانونية البنوَّة.. الجميع كان على اتفاق مُسبق، كلٌّ ذلك على رأسي العاري، رأس الفأر الأبيض!!

أنا حُرّ بن يقظان.

كلُّ ما كان يشغل سلوانة هو سرير والدي، ألا تغادر أحضانه ورائحة فمه ورضاب لسانه.

هكذا سجَّلوني في الدفتر العالي كطفلٍ من أسافو وأبـي إسحاق السنوسي.

وفي سنتي الخامسة، وفي يوم ختاني، جاء الناس من كل جهة، ولأول مرة شَعَرتُ بالخوف، وتجسَّد لي الخوف في صورة أسافو باكيةً، ومثلها وربما أكثر كانت سلوانة، تبكي أيضًا بحُرقةٍ وتصرخ والنساء تطلب منها السكوت؛ فهذا ضد الإسلام، وأنْ لا أحدَ من الذكور يمشي في الأسواق بجلدةٍ تُغلِّف رأس قضيبه إلا الكفار والنصارى، "ارحمي نفسك يا سلوانة وتذكَّري ربك واستغفريه"، وأما الأخريات من النساء فكنَّ يُغنِّين ويرقصن على صلوات النبـي وعلى "طلع البدر"، ويُزغردن الواحدة بعد الأخرى وكأنهن في مسابقة.

بعد الانتهاء من حفل الختان، وبذلك خرج آكسل من حظيرة الخنازير المُدنَّسة وقد أصبح نظيفًا ومسلمًا، في تلك الليلة أضرمت أسافو النار في الغرفة المليئة بالصوف والتي كانت تنام فيها

سلوانة، احترق الصوف على آخره لكن سلوانة كانت في أحضان والدي بإسطبل البقرة فأخطأتْها ألهبةُ النار.

وفي اليوم التالي، وقبل غروب الشمس بقليل، خرجت سلوانة حافيةَ القدمين، حزينةً، شعرها مُنسدلٌ على ظهرها، نظرُها بين قدمَيْها، تجمَّع بعض الأهالي على أطراف الساحة العمومية، كانوا صامتين، النساء والرجال والأطفال، نظرَتْ خلفها، لم تكن القهقهة العادية في فمها، تأملَتْ سريعًا وجوه المُوَدِّعين، والغرفة التي لا تزال آثار ألسنة النار باديةً من نافذتها التي تطل على الخارج، أسرعتُ في عقبها، لكن أسافو سحبتني بعنف من ذراعي، وأدخلتني البيت، وأغلقت الباب عليَّ، في حين ظلت هي عند العتبة تراقب المشهد.. غادرت سلوانة القرية في اتجاه الجنوب، لم تأخذ معها شيئًا لا من أغراضها ولا من مؤونة قد تحتاجها في طريقها.

وإذ اختفت عن الأنظار، عاد بعض الأهالي إلى أشغالهم والبعض الآخر للحديث والتعليقات، وحين غادرت أسافو عتبة البيت حيث كانت تقف، علَّق البعض قائلاً: إن سلوانة ستعود إلى القرية بمجرد أن ينزل الليل على الكون، فليس لها من وسادة إلا قلب إسحاق، ولن يتقبل إسحاق السنوسي التنازل عن سريرها وعن قهقهاتها الطفولية. وقال آخرون: هو غضب الأنثى، وسيزول بعد سويعات. وقال آخرون: لا يمكن لأفعيَيْن أن تعيشا في غار واحد. وقال آخرون:... وقالت أخريات:...

نزل الليل بسواده الداكن فأخفى القرية والعباد، وسكت الجميع، وكالعادة نام الناس ولم أستطع النوم، كنت أفتح عيني في الظلام وأنتظر أن تدخل سلوانة من النافذة أو تحط من السقف. وفي الصباح لم أجدها، قلت ستعود عند الظهيرة، وانتظرتُها، وفاتت الظهيرة ولم تظهر، ثم ليل آخر وصباح آخر تلاه يوم آخر ولم تظهر، وبدت ملامح الفرح تظهر على محيَّا أسافو، واستعادت جزءًا من شبابها، في المقابل سكن الحزن عيْنَيْ والدي ولم يعُدْ يغادر الغرفة، يشرب الشاي كأسًا فوق أخرى، ويقرأ القرآن، ويسمع أخبارًا في الراديو الذي يحتفظ به إلى جنبه ليلاً ونهارًا، وقد بدا ضعف كبير على جسمه مع مرور الشهر الأول من اختفاء سلوانة.

كان أبـي حين يريد أن يُدلِّل سلوانة يناديها بـ "حلوانة"، يناديها بذلك في غياب أسافو، طبعًا.

مع مرور أربعين يومًا أُصِيب أبـي بهَوَس، وبدأ يَهذِي، يتكلم وحدَه كلامًا كثيرًا وغيرَ مفهوم، يُرى في الليل يمشي حافيًا ما بين الساحة العمومية وباب المنزل، يصعد إلى السطح ويقضي الساعات ما بين أحواض صباغة الصوف الفارغة، ينظر إلى السماء، يخاطب النجوم ويضحك ويبكي وحدَه، يذكر وقائع وأسماء أماكن وأشخاص، يقفز داخل الحوض الفارغ ويبدأ في الدعك أو الرقص، ينظر إلى السماء مخاطبًا سلوانة فلا ترُدّ سلوانةُ عليه، سلوانة التي اختفت، ولمّا لم يجِئْه صوتها، ولا صدًى، صبرَ ثم صبَر، ثم دخلَ في صومٍ عن النوم والأكل مُكتفيًا بقليل من الماء وحباتِ تينٍ مُجفَّف، ركَنَ جسدَه المتآكل في غرفة في أقصى الحوش حيث كان يُنصب النول، تُظلل عتبتها شجرة دالية كبيرة متفرعة تصل فروعها حتى السطح، تُعطي عنبًا غريبًا، تبقى عناقيده معلقةً حتى منتصف فصل الشتاء، حبات العنب بلون بنفسجي مائل إلى الرمادي، آخرُ عنقودٍ من الشجرة يتم قَطْفه في ليلة عيد رأس السنة الأمازيغية، الذي يحتفل به أهالي القرية في 12 يناير من كل عام، فيه تلبَس النساء الجميل من ثيابهن، كثير الألوان، ويتأنقن، ويُخرجن أوانيَ من الفخار والنحاس لا تستعمل إلا في هذه المناسبة، مرةً واحدةً في السنة، ويلبس الرجال برانيس للمناسبة ويتنازلون عن الجلابيب، فالبرنوس -كما يقول العلامة عبد الرحمن بن خلدون- هو اللباس الأمازيغي بامتياز؛ إذ ورَدَ في واحدةٍ من كتاباته: "تنتهي حدود بلاد تامازغة حيث لا يرتدي الرجال البرنوس، ولا يتناول الناس الكسكسي كأكلة تكاد تكون يوميةً".

مع كل احتفال بعيد مطلع السنة الأمازيغية كان والدي يُخرج كتاب ابن خلدون "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، في طبعة مُذهبة غريبة، اقتناها من مدينة مكناس، ويروى أنها كانت نسخة الملك المولى إسماعيل الذي كان يقرأ منها لزوجته لالة خناثة صفحةً كل ليلة باستثناء ليلة الخميس، ليلة ممارسة الجنس وتدخين الحشيش، وهي نسخة مُذهبة وممهورة بختم الملك، ويقال: إن النسخة سُرِقت من مكتبة ضريح المولى إسماعيل، وقد اشتراها والدي من أحد تُجّار المخطوطات التنبوكتيين المهرة.. كان يقرأ منها كلَّ مساء لأسافو الممدّدة على يمينه وسلوانةَ على يساره، قليلاً مما كتَبَه ابن خلدون عن منطقتنا، تدوم القراءة طَوال مساءات الأسبوع الأول من السنة الأمازيغية الجديدة، وبعدها يعيد الكتاب إلى مكانه ملفوفًا في الفوطة الحريرية، فوقها زربية من الحرير الخالص من نسج أصابع سلوانة، ليظلَّ مُخبَّئًا حتى ليلة الشك من رمضان المُقبِل.. كثيرًا ما كان ابن خلدون يُحرِّف الأسماء فيُصحِّح له والدي هفواتِه وهو يبتسم ونظره لا ينزل من على جسد سلوانة التي تزداد جمالا في الشتاء، ويخفّ

وزنُها فتصبح وكأنها من فصيلة الطيور التي تحدثت عنها الأساطير في كتاب "دراية النحل وركوب الخيل" واصفةً إياها بـ "طيور الجنة"، والتي نحتفظ بصورة تُمثِّلها اقتناها والدي من سوقٍ شعبيّة ووضَعَها في إطار بدون زجاج وعلَّقها عند مدخل باب الحوش، وقد زادتها طبقات الغبار الخفيف النازل عليها كثيرًا من الجمال، ومنحَ ألوان ريشها أُبَّهة وفتنةً قريبةً من الغموض الشعري أو الروحاني.

7

اسمي حُرّ بن يقظان.

كبِرتُ بسرعة غريبة، أدخلوني المدرسة الابتدائية متأخرًا قليلاً؛ لأن أمي كانت تخاف عليَّ من معلمات مدارس الآباء البيض، بالموازاة مع ذلك كنت أتردَّد على المدرسة القرآنية التي لم أكن أرتاح فيها إلى دروس ذلك الفقيه الذي تُخيفني نظرات عينيه العميقتين كبئرٍ جافّ، كنت أخاف من لحيته ومن تلك العصا التي لا تفارق قبضة يده اليسرى، ذراعه اليمنى كانت مبتورةً، بُتِرَت بسبب انفجارِ لَغَمٍ فيها حين كان يبحث عن بقايا النحاس بين أسلاك شائكة من أيام الاستعمار ليبيعها في سوق الخردة.. أكثرُ من ذلك كنت أخشى لمساتِه المتكررةَ لفخذي وأَليتي، كان يحملني ويضعني في حِجْره، يُجلسني بعنفٍ على شيءٍ منتصبٍ كالعمود بين ساقَيْه ويطلب مني استظهار سورة الفاتحة، وتحت رَقابته أُردِّد عاليًا الفاتحة التي أحفظها عن ظهر قلب، وكلَّما خَفَت صوتي يصرخ فيَّ "بصوتٍ عالٍ" "اقرأ.. اقرأ"، وكانت أنفاسه تتلاحق وهو يعصِرني ويسمع كلمات كتاب الله على لساني الذي لا يخطئ في نُطق كلام الله.

أنا ابن سلوانة، حتى وأنا في حضن معلم القرآن لم أنْسَ يومًا سلوانة، حتى إنني بدأت أتساءل: هل هي أمي أَمْ حكايتي التي ضاعت مِنّي في ليلٍ تحت الوسادة؟

يوم انقطعتُ عن المدرسة القرآنية شَعَرْت بالسعادة، ومن يومِها قرَّرْت أن أتعلم اللغة الفرنسية؛ كي أُشفى من جُرح.. تعلُّم لغةٍ غريبة أخرى هو نسيانُ لغةٍ ارتبطت في ذهني بحِجْر الفقيه، وبملامساته، وبأنفاسه المتقطعة وهو يعصِر جسدي الصغير وأنا ساكت لا أجد سوى كلام الله أشُدُّ فيه.

لم أُصرِّح بذلك لأبـي، ولا لأسافو.

يحملني جُرح.. أنا حُرّ بن يقظان.

كان والدي الذي بدأ يفقد ذاكرته سعيدًا بتفوّقي في مدرسة الآباء البيض، وقد ساعدتني أسافو كثيرًا على تعلُّم الفرنسية بسرعة مدهشة.. الواقع أنني كنت أريد أن أنسى العربية، أن أُبدلها في قلبـي وفي ذاكرتي بلغة أخرى، لا يُخفي لغةً إلا لغةٌ أخرى.. أصبحت أسافو لا تكلمني إلا بالفرنسية، وكنت أشعر بسعادة لذلك، وهي في ذلك كانت تستعيد من خلالي -وأنا أتحدث الفرنسية التي أتقنتُها في بضعة أشهر- صورة يعقوب عسل- الزمن، وبين المناسبة والأخرى تقرأ لي بعضًا من أشعار رامبو، كانت تأخذني في أحضانها وهي ترتجف صارخةً "يعقوب يا يعقوب"، وكنت أرُدّ عليها بالفرنسية "أنا آكسل، يا أمي، أنا حُرّ بن يقظان".

بدأتُ أنزعج لحركاتها وهي تحضنني وتلاحقني في فراشي، تتمدَّد بجواري وتقرأ لي أشعارًا لرامبو، وأخرى لفيكتور هيغو ولامارتين، وما تعلَّمَته وحفِظَته من يعقوب عسل - الزمن.. تُقبِّلني بعنف وبحرارة على فمي، وأشعر بجسدها يرتعش، أنادي على والدي فلا يردّ، وهو الذي بدأ يَهذِي ولا ذِكْرَ على لسانه سوى اسم سلوانة.

وذات يوم جاء رجل إلى قريتنا، دخلها صيفًا وبسيارة فخمة غطَّاها الغبار وهو يسير بين الزقاق الترابـي، اجتمع الناس من حوله، النساء والرجال، واحتفلوا به احتفالاً ذُبِحَت له فيه الخِراف والدجاج، وفُرِشت الزرابـي من بينها تلك التي نسجَتْها سلوانة والتي لم تُستعمل منذ أن سحَبَتْها من على النول وطوَتْها ووضعَتْها على لوحٍ مُثبَّت على عرض الغرفة التي ينام فيها والدي.

عرفتُ أن القادم هو أحد أبناء القرية الذين استقروا في العاصمة منذ استقلال البلاد، بين الرجل ووالدي شبه كبير، لولا أن والدي أتعبَه الزمن، وهلَكَه غياب سلوانة، لقُلتُ إنهما توأم.. قضى ثلاث ليال، وفي الليلة الأخيرة اقترح على أبـي أن يأخذني معه إلى العاصمة كي أواصل دراستي هناك، فمستقبلي لن يكون إلا بعيدًا عن هذه القرية، شَعَرْت بسعادة لهذا الاقتراح لشيئين: الأول هو الهروب من أسافو التي بدأت تُخيفني حركاتها، والثاني هو أملي أن أعثر على سلوانة هناك ضائعةً بين الشوارع الكبيرة فأُعيدها إلى والدي.

هكذا جاء بـي سيدي مولاي إلى العاصمة لمواصلة دراستي الثانوية، كنتُ سعيدًا أن أجيء العاصمة، أكبر مدن البلاد قاطبةً، لقد ارتحتُ من معلم المدرسة القرآنية الذي كانت صورته تلاحقني في السرير وفي الحمّام وفي الطريق.. من قرية التفاحة إلى مدينة ضخمة، دوخة، عرفتُ لاحقًا بأن سيدي مولاي كما كان يدعوه الجميع في القرية، الصغار والكبار، النساء والرجال، هو مالك أحواض صباغة الصوف وصاحب قُطعان الأغنام التي تعطي الصوف، الآخرون ليسوا أكثرَ من رعاة ومُربّين وعَمَلَة، بمن فيهم والدي.

منذ وصولي إلى هذا البيت الواسع الذي هو عبارة عن بناية كولونيالية، وسط حديقة بمساحة تفوق الهكتارين، وسط العاصمة، بالأحرى في أعالي المدينة، بحي تليملي الذي كان الفرنسيون يُطلقون عليه اسم "شرفات العاصمة"؛ لكونه يطل على خليج المدينة.

حين قلتُ لسيدي مولاي ونحن نعبر مدينة الجزائر العاصمة لأول مرة: "أشعر بالغربة في هذه المدينة". أجابني قائلاً: "جميع مَن في العاصمة غرباء، كلهم جاؤوا من القرى والمداشر والصحراء".

لقد منحني ثقةً في النفس من حيث لا يدري لمواجهة هذا الفضاء المهول، وبالفعل ومع مرور الأيام أدركتُ أن سكان العاصمة هم من الضواحي؛ إذ تُصبح المدينة شبه خالية يوم العيد لأن الجميع يعود إلى أصله في القرى والمداشر والصحراء والهضاب العليا.

منذ الأيام الأولى، أحسستُ بشيء يضايقني؛ إذ لاحظتُ أن سيدي مولاي يعاملني كأنني ابنه، ابنه من صلبه، كلما رآني أطال النظر فيَّ وكأنما يشعر بذنب يؤنب ضميره.. شَعَرْت بضياع، وكنت أقف أمام المرآة وأرى وجهه فيَّ، أصادف عينيه في عيني، أنفه، لون بشرَتِه.

حُرّ بن يقظان..

لا أطلب شيئًا من أحد، ومع ذلك كل الأشياء تحضر، الألبسة والأحذية و"مصروف الجيب" الذي كنت أشتري به بعض الكتب والأشرطة الموسيقية لإيديت بياف وجاك بريل وجورج براسانس، وأصبحت من المداومين على قاعات السينما، قد أشاهد فيلمًا ثلاث مرات: المرة الأولى لفهم الحكاية، والثانية للموسيقى، والثالثة للمتعة والتجاوب مع الممثلات والممثلين.

كانت قاعة السينماتيك بشارع العربـي بن مهيدي وجهتي المفضّلة، لا يُعرض فيها فيلم إلا وشاهدته، واستمعتُ إلى النقاشات التي كانت تعقُب العرض.. كانت السينما هي من تنقذني من نظرات سيدي مولاي.

كان سيدي مولاي حين يشعرني بأنه بمثابة أبـي، أُحسّ بحرج وأتذكَّر سلوانة التي كان الرجال يتهامسون كلما ذُكر اسمها في الحاضرين.

- ابن مَنْ أنا يا ترى؟

ولأنه كان يطيل النظر إليَّ، كان يخيفني، خاصةً في الليل أو عند القيلولة، كنت أهرب من عينيه الغارقتين في زرقة سماوية باردة وأجري إلى الحمّام، أتفحَّص ملامحي علّ بها شيئًا خارجًا عن العادي، لكني كنت أرى صورة هذا العم، هكذا كنتُ أناديه، إلا أنه في حقيقة الأمر هو ابن عم والدي، بملامحه وبابتسامته الغامضة مرتسمةً على ملامح، هذا الذي يقابلني في المرآة، أجدني أُشبه هذا العم أكثرَ مما أُشبه أبـي؟

وأصرخ "الروخو، الروخو، الروخو" ولا أحد يسمعني.

كلما دخلتُ هذه البيت الواسع عائدًا من الثانوية، والذي يشبه المزرعة وسط غابة من العمارات التي بدأت تشيخ بسرعة؛ لأنها لم تحظَ بأي ترميم منذ خروج الاستعمار، منذ هروب ساكنيها من الفرنسيين والإسبان واليهود، إلا واستقبلني سيدي مولاي مبتسمًا ابتسامةً جادة، فيها أثر بداوة مُختفية -يكون قد انتهي للتوِ من حصة قراءة القرآن، من على قمة عمره الذي تجاوَزَ الثلاثة والستين عامًا ببعض شهور.. قرَّر -وهو الذي يعارض قوانين الثورة الزراعية، ويحارب بالعلن التيار اليساري الذي يقود البلاد إلى الهلاك والإفلاس- أن ينضم إلى جمعية دينية سياسية قريبة من جماعة الإخوان المسلمين، وأن يحفظ القرآن كاملاً، وهو الذي لم يفعل ذلك كأقرانه حين كان صغيرًا.

ها هو اليوم يحاول أن يحفظ كتاب الله كاملاً، لا من أجل كتاب الله، بل ربما ليكسب ثقة مَن يحيطون به من جماعة هذا التيار الديني، وقد فضَّل أن يختار الداعية الشيخ محمود مرسي القنادسي -وهو رئيس جمعية "النور الإسلامية"- ليرافقه في هذه القراءة والحفظ.

يُلقَّب الشيخ محمود مرسي القنادسي بالمصري مع أنه جزائري من أبناء حي القنادسة بمدينة بشار الجنوبية، وقد أُطلق عليه اسم المصري؛ لأنه هاجر من مدينته منتصف الخمسينيَّات خوفًا من التجنيد في صفوف ثورة التحرير وكانت على أشُدّها، كان عليه إما أن يلتحق كجميع أبناء الضواحي بصفوف الثورة أو يُعدم أو يهاجر، التحق بالقاهرة مختفيًا في هيئة شيخ في قافلة للحجاج، ودخل الأزهر وفيه تخرَّج، وظلَّ هناك سنواتٍ بعد الاستقلال حتى نسِيَه الجميع، أو كاد، يعودُ ذات يومٍ نهايةَ الستينيَّات مرتديًا العمامة والجبة الأزهريتين، ومن يومها لم يتنازل عن لباسه الأزهري، كما أنه لا يتكلم إلا باللهجة المصرية أو باللغة العربية الفصيحة، ويعتبر الفرنسية -كما العامية الجزائرية- لغةَ الكفار والطريق الذي يوصل إلى جهنم، وهو الذي يُردِّد في كل مرة "باب الجحيم سيكون في الجزائر، لغة أهلها تدل على ذلك".

كلَّما عبَرَ الشيخ محمود مرسي القنادسي الشارعَ بِزِيِّه الأزهري المثير تصارَخَ الأطفال والمراهقون بصوت واحد من كل أركان الشارع: "الفول، الفول"، فكل مصري في الجزائر يطلق عليه شعبيًّا لقب "الفول"؛ ربما لاستهلاك المصريين هذه المادة التي هي نادرة الاستهلاك لدى الجزائريين.

عمِلَ الشيخ محمود مرسي القنادسي مُدرسًا تابعًا لوزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، في إطار مئات عقود التشغيل أمضَتْها وزارة الشؤون الدينية والأوقاف مع مجموعة من الأساتذة لتولِّي تدريس طلبة معاهد التعليم الأصلي، وهو نظام تدريس إسلامي موازٍ أنشأَتْه هذه الوزارة لمعارضة نظام التدريس بالثانويات العمومية المدنية، وقد أصبح مرتعًا لجحافل الأساتذة المصريين من مناضلي حزب الإخوان المسلمين الذين كانوا عرضةً لمضايقات نظام جمال عبد الناصر في مصر.

لم تمضِ على الشيخ محمود مرسي القنادسي من عودته إلى أرض الوطن إلا ثلاث سنوات حتى ألقت مصالح الأمن القبض عليه وفي حوزته كمية كبيرة من العملة الأجنبية، كان يتاجر فيها مع المتعاونين العرب، كما عثرت على مجموعة من منشورات حزب الإخوان المسلمين في بيته، وهو التنظيم الذي بدأ يتأسس بِسرِّية في صفوف المدرسين والطلبة المنتمين إلى سلك التعليم الأصلي، وقد ساعد نظام التدريس هذا عملية التواصل والتنسيق بين المنتمين إلى هذا التيار، وبالتالي إطلاق نواة حزب الإخوان المسلمين في الجزائر، على إثر ذلك أُلقي بالشيخ محمود مرسي

القنادسي بالسجن لأيام، حيث أصبح يَؤُمّ المساجين في الصلاة، ويقال إنه حتى في السجن لم يتنازل عن لباسه ولا عن عمامته الأزهرية ولا عن سبحته ذات الفصوص الخشنة، بعد تدخُّل من الوزارة الوصيّة أُخلِيَ سبيله.

قال ضابط الشرطة لمحمود مرسي القنادسي وهو يُخلي سبيله: "الجزائر بلد ثورة أول نوفمبر المجيدة، هذه الثورة لا تسجن أزهريًّا قلبه عامر بكلام الله وكلام الرسول عليه الصلاة والسلام".. "الجزائر بلد المليون ونصف المليون شهيد، هي مع فلسطين ظالمةً أو مظلومةً، وإن تحرير فلسطين لن يمرّ إلا عَبْر الأزهر الشريف".. "الجزائريّ مع الأزهريّ ظالمًا أو مظلومًا"!! رافقه حتى المرآب وأمر أحد معاونيه أن يوصله بسيارة الشرطة حتى مسكنه، كإشارة منه لطلب الاعتذار.

8

لالة بتول، أو لالة مولاتي كما يناديها الجميع، سيدة أنيقة وجميلة، قليلة الكلام، لا تسبّح إلا بزوجها، هو إلهها الأكبر الذي إليه تتوجه من الصحو إلى المنام متعبدةً، خاشعةً، خنوعةً، خدومةً، حين يكون الحاج كريم أو سيدي مولاي في البيت لا تبتعد عنه، هو تحت عينيها، هو في عينيها، وهي تحت طلباته، تحت تصرُّفه المطلق، تجلس قبالته تنتظر منه الأوامر، تنتظر منه أن يطلب أي شيء يريده، يتمناه، يتخيله، فهي جاهزة، على استعداد دائمًا لتلبية الطلب مهما كان: لكي تهشّ عليه ذبابةً تزعجه وتفسد عليه قيلولته بطنينها، لترفع كأسَ ماءٍ فارغةً من على الطاولة التي أمامه، أن تُقدِّم له فنجان قهوة، لا بالساخن فيؤذيه ولا بالفاتر فيفقد أريجه، مع كعكة تلمسانية فوق صينية نُحاسيّة يلمع عليها نقشٌ لصورة قصر الحمراء، وبيتان شعريّان لابن زيدون عشقًا في ولاّدة بنت المستكفي، أن تحرك له حبة السكر حتى تذوب في قهوته أو شايه ومعها تذوب هي أيضًا في حضرته الصامتة، أن ترد على الهاتف الذي يرن بطريقة كلاسيكية فوق الطاولة الزجاجية بركن الصالون إلى جانبِ نسخةٍ من القرآن على رواية ورش، وتكذب على المتكلم في الجهة الأخرى من الخط، كما يطلب ويرغب، قائلةً للمتحدث بصوتٍ واثقٍ ومؤدبٍ: "... إنه ليس هنا، لقد خرج لشأن عاجل ولن يعود إلا متأخرًا"، وسيدي مولاي قبالتها يشرب قهوتها من فنجان عليه رسم لغزالة بعينين واسعتين، غزالة حين ينظر إليها سيدي مولاي تثير بعض الغيرة في قلب لالة بتول، تقشّر له على الفور برتقالةً أو تفاحةً وتُطعمه إياها فصًّا فصًّا كي يسحب نظره من على عيني رسم الغزالة المثيرة، تُطعمه وتسأله إذا ما كانت البرتقالة حلوة، وإذا ما كان يرغب في ثانية أو في أي شيء آخر.

تصغر لالة مولاتي زوجَها الحاج كريم أو سيدي مولاي بنصف عمره تقريبًا.. هي الغزالة بعد منتصف العمر.

لا يُنسيها ابنَها البكر المُدلَّل الهواري الذي لا يزال ينام في حِجْرها وهو في عمري أو أكبر، إلا حضورُ الأب، فإطلالة سيدي مولاي تغطي على كل وجود، على كل كائن، هو الوحيد الكائن الحي الموجود في الوجود، البقية ظِلال وأشباح وكذبٌ وبهتان، لالة مولاتي تعبد زوجها، وهي في هذه العبودية تخاف منه وتخاف عليه، شيء مُقلق، غير واثقة من نفسها ولا هي أيضًا تثق فيه، قلبها يقول لها ذلك: الرجل ثعلب، الرجل ثعبان.

بمجرد أن جئتُ هذا البيت وانتميتُ إلى هذه الأسرة، أصبحَ لي أخ هو الهواري الذي يكبرني بسنة وبعض شهور، كان لا يتردَّد في مقاسمتي كلَّ شيء، أكلَه ولباسَه وفلوسَه، الشيء الوحيد الذي لم يكن يرغب في أن أقاسمه فيه هي أمه لالة مولاتي، ولأنني شَعَرت بهذا التخوُّف وهذا الرفض من قِبَله في أن أملِك ذات يوم قلبها وأسرقها منه وأضع أنا الآخر ذات قيلولة رأسي في حِجْرها فتحُكّ لي ظهري وتُمسّد على شعري الذي أُفضِّل الإبقاء عليه طويلاً كي تدخل فيه أصابعها المُحنَّاة باستمرار، حناء حمراء مائلة إلى الاسوداد، فقد بدأتُ في البحث عن طريقٍ لامتلاك قلبها وأناملها التي أتمنَّى أن تحُكّ لي ظهري ذات يوم.

نار الحُب تشتعل من حكّ الظهر!

على الرغم من هذه الحياة الزوجية الطويلة التي يتقاسمانها، والتي تجاوزت الثلاثين عامًا، والتي أنجبَا فيها طفلاً ذكرًا وثلاث بنات، كُبراهن ماتت مختنقةً بعد أن نامت عليها لالة مولاتي، لكنّه قَدَر الله؛ فالأعمار بيده -لا تزال لالة بتول مسكونةً بفكرة أن زوجها سيدي مولاي سيدخل ذات مساءٍ من هذا الباب ذي الدفتين والذي يقابلها، ساحبًا خلفه امرأةً أخرى يقودها إلى فراشه، مهووسةً بأن هذا سيقع طالَ الزمن أم قَصُرَ، وسيُسقط الفأس على رأسها.. هذه الفكرة تعذبها، تُطيِّر النعاس من عينيها، تجعلها لا تأكل، قلقةً باستمرار.

شعرتُ بفظاعة خوفها هذا؛ إذ إنها كانت كُلَّما وَضَع رِجْلاً خارج البيت تقبض عليَّ بين ذراعَيْها تارةً وبين فخذَيْها تارةً أخرى وتبكي، تشهق كما طفلة سُرِقت منها لُعبتها الوحيدة.

حين يعود من عمل أو من موعد تجلس قبالته، وتشرع في رميه بوابل من الأسئلة مستفسرةً عن تفاصيل يومه، وعن أسماء زُوّاره، وعن قميصه إذا ما كان يرغب في تغييره، تتشمَّم رائحته، وتتشمَّم رائحة ملابسه الداخلية في البحث عن أثر لرائحة أخرى قد تكون تداخلت ورائحة عرق سيدي مولاي، هل هناك أثر لامرأة مرّرَت شفتيْها من هنا على هذا القميص، أو بقايا أنامل لعبت بربطة العنق هذه؟.

بفارغ الصبر وبإحساس غريب، إحساس من يريد أن يخطِف أمًّا من ابنها المنافس، كنتُ أنتظر متى يغادر سيدي مولاي المنزل كي تقبض عليَّ في حضنها وتعصِرني بين فخذَيْها.. لقد بدأتُ أشعر بلذةٍ ما في حركاتها، وكأنني مُنقذها من غولٍ يهددها باستمرار.

سرور غريب كان يخالجني، يدغدغني..

... وبشغف أنتظر متى يحين الوقت لكي تحكّ لي ظهري!

لاحظتُ أن علاقةً بين سيدي مولاي والداعية محمود مرسي الأزهري متينة، فهما يلتقيان حول كتاب الله ثلاثَ مرات في الأسبوع، يُرتِّلانِه، وكأنهما بذلك يطاردان الشياطين من أركان هذا البيت العامر، شياطين تسكن الأفلام التي تُبثّ على شاشة التلفزيون، وشياطين أخرى تتبع البنتين جنينة وجميلة حتى أحلام السرير، وشياطين تسكن الهواري الذي يحلم أن يكون تارة موسيقيًّا عازفا على أكبر المنصّات في فرنسا وأمريكا وأخرى رجل سياسة يدور العالم حول سبّابته، ويجمع بين الرجلين حديث طويل في السياسة والأخلاق التي فسدت!!

حين تسمع لالة مولاتي ترتيل القرآن قادمًا من الغرفة المقابلة للمطبخ حيث تقف، تبحث عني، تأخذني في حضنها وتشهق بكاءً، وهي تحضر الشاي وتتابع نغم التلاوة المباركة قائلةً بصوت مسموع: "كلام الله سيحفظه لي من عين النساء التي لا تنام".

ارتاحت قليلاً وهدأ قلبها منذ دخل الداعية الأزهري هذا البيت، وكلما استمعَتْ إلى تلاوة كتاب الله شَعَرَت بنوع من الفرح، وكأن من امتلكها وامتلكته خلال هذا العمر الطويل من الحياة المشتركة قد اقتربت نهايته، ففي هذا البلد لا يَقرَأُ القرآن إلا من يريد أن يُصبح سياسيًّا، فالدين تجارة رابحة، أو مَن يطمع في مكانٍ في الجنة بعد كثيرٍ من الإثم والخراب، أو من يشعر باقتراب ساعته؛ فالدين في كل الحالات طريق الانتهازية، انتهازية أمام الخالق أو أمام المخلوق.

لكن لالة مولاتي، وبمرور الأيام وتوالي جلسات الترتيل، في الشتاء والصيف، في الخريف والربيع، كانت تنتظر هذه اللحظات التي يُرفع فيها كلام الله في نغمة محمود مرسي الأزهري؛ فتُسرع للبحث عنِّي في غرفتي تلاحقني في السرير نصف عارٍ تقريبًا فتحتضنني بعنف وهي تتابع إيقاع القراءة.

يقابلني تارة وجه أسافو وتارة شبح سلوانة.

وحين بدأتُ أنا الآخر أنتظر ساعة القراءة كي أجدني بين أحضان لالة مولاتي، سكنني خوف وهلع من أنَّ أمرًا ما على وشك الوقوع!! فأخذتُ أهرب من لقائها في مثل هذه الساعة، أغادر البيت قبل دخول الداعية، أجلس على رصيف الشارع أراقب باب البيت حتى مغادرة الشيخ.

لكني كلما غادرت البيت خوفًا من أن يقع الذي أنتظره وأخشى وقوعه بيننا، أتخيَّل شرارةً من عينَيِ الداعية الأزهري، لا يتوقف عن النظر إلى لالة مولاتي بشهيّة الذئب الجائع، وعلى الرغم من وجوده إلى جوار زوجها وفي حضرة كتاب الله كنتُ لا أشعر باطمئنان لهذا الأزهري، بدأتُ أخاف عليها وأهرب منها، أتجنَّب لقاءها تحت ترتيل القرآن الذي يسحرها، يُغيِّبها عن العالم المحسوس فتُسرع إلى أحضاني كطفلةٍ تبحث عن ملجأ بعد أن حاصرَتْها الزوبعة من كل جهة، مع ذلك كانت تعيش حالةً من الراحة القلِقة؛ فالأزهري هو من يربط لها زوجها ربطًا، وبحبال من حديدٍ إلى القرآن، وحب الله، والتدين، والتفكير في الحج للمرة الرابعة والعمرة للمرة الثامنة، والانشغال خمسَ مرّاتٍ بالصلاة يوميًّا، وهذا كله يبعده عن التفكير في الارتباط بامرأة أخرى.

لماذا تشغلني لالة مولاتي؟ في البداية كنت أريد أن أخطفها من ابنها الهواري، ولكني الآن أريد أن أخلصها من عيون الأزهري الشرسة.

تارة أريدها لي كسلوانة وتارة كأسافو وتارة أخرى أضيع!!

.. وأخاف من الضياع، أنا الحر بن يقظان.

من بعيد، كنت أراقب حركات الأزهري، ومع مرور الأيام وكثرة الزيارات، كنت أشعر بأن نظرات الأزهري الشهوانية الساخنة المُسلَّطة على جسدها أصبحت تُسعدها لأنها تُشعرها بأنها لا تزال أنيقةً ومغريةً وقادرةً على إثارة الرجال، ولو كانت قلوبهم في كتاب الله وألسنتهم لاهجةً به.

كلَّما نظر إليها الأزهري نظرة الذئب الجائع وهي تضع صينية الشاي بينه وبين زوجها وهما غارقان في كتاب الله، أسرعَتْ إليّ وأخذتني بعنف إلى صدرها، كنت أشم رائحة غريبة تصعد من ثديَيْها المنفوشَيْن قليلاً.

وأصبحتُ أنا الآخر أنتظر زيارة الداعية على جمر ورعشة، ولم أعُدْ أغادر البيت للجلوس على الرصيف انتظارًا لمغادرته.

كان الداعية الأزهري يجيء البيت ثلاثَ مراتٍ في الأسبوع، أيام الأحد والثلاثاء والخميس، وكانت كل جلسة ترتيل ونقاش ومذاكرة تدوم نحو الساعتين، ما بين الساعة الثالثة والخامسة زوالاً، وتنتهي بنصف ساعة أخرى على كأس شاي وحديث هامشي عن فلسطين والقدس واليهود والأنظمة العربية الشيوعية أو اللائكية الكافرة، والدين الإسلامي المهدَّد من قِبل الغرب ومن قِبل عملاء الغرب من الفرانكفونيين في الجزائر.

كانت عين الداعية الأزهري لا تنزل من على جسد لالة مولاتي كلما دخلَتْ أو خرجَتْ أو مرَّتْ أو استجابت لطلبٍ من طلبات سيدي مولاي، يتبعها في ذَهابها وإيابها، وبمرور الوقت، أعجبَتْها اللُّعبة وأصبحت تُثيرها نظراته، وكانت تلبس أجمل ملابسها، تختار الألوان الزاهية الصارخة وتتعطر بعطر قوي لإثارته أكثر.. بدأ يسكن مُخَّها شبحه قليلاً قليلاً، تنام يوم السبت، بمجرد أن تتمدد على السرير، تنسى بأن سيدي مولاي يشخر إلى جوارها، وتشرع في التفكير في قدومه يوم الأحد، وذات الحال من قلق الانتظار تسكنها وهي على سريرها الزوجي ليلتَي الاثنين والأربعاء اللتين تسبقان زيارتي الثلاثاء والخميس.

أنا الآخر كنت لا أنام، أقضي الليل أحدق في سقف الغرفة أتلوَّى بين نار غيرة يُثيرها فيَّ الأزهري، وبين لهيب انتظار أنفاس عطرها وملامسة ثديَيْها المنفوشَيْن قليلاً.. أريدها لي.

بدأتُ أُفكِّر في اغتياله، ثم بسرعةٍ نسيتُ ذلك.

بين زيارة وأخرى، وبكثير من الكرم والاحترام كانت لالة مولاتي تُصرّ على الأزهري كي تستبقيه للعشاء معنا، خاصةً حين تطول وتتشعب المناقشة بينه وبين سيدي مولاي حول شؤون العالم الإسلامي، وطغيان المادة، وقلة الأخلاق، والتخلي عن نهج الدين الإسلامي الحنيف، وضرورة إقامة الجهاد المقدَّس لأجل تحرير فلسطين من أيدي اليهود، والتفكير في تشكيل حزب

إسلامي قادر على أن يُعيد مَجْدَ الخلافة وينهي لعبة الأوطان والوطنية الكافرة، وكانت تشعر بسعادة حين يَقبل دعوتها لمشاركتنا العشاء، كانت تنتظر أن يلتهمها بنظره الحار قبل أن يلتهم ما في الأطباق، كان يتبعها، يُمصمص تفاصيل جسدها وهي تُقدِّم طبق الفواكه أو براد الشاي المُنَعْنَع، ولم يكن سيدي مولاي ليعير ذلك أي انتباه، ولم يكن ليتبرَّم بوجوده، بل كان هو الآخر يبدي سعادةً لا توصف لوجوده بيننا على العشاء؛ فهو خريج الأزهر الشريف، هو جزء من مصر أم الدنيا.

كنت أغضب من بقائه فأهرب إلى غرفتي وأغرق في أغاني إيديت بياف أو في كتاب الأشرطة المرسومة بليك لو روك Blek le Roc.

لكل أجل ميعاد..

المرأة بعد أن تتخطى منتصف العمر تصبح مُعتَّقةً كالنبيذ، لا يعرف سرّها إلا من يفقه سِرَّ الخمور التي تُبجّلها وتُجلّلها السنوات.

في كل جلسة يُذكِّرنا الداعية الأزهري بما قام به في حرب 67!! حيث كان مجندًا على الجبهة، وقد أسقط طائرتين إسرائيليتين، وقتَلَ أزيدَ من عشرين عسكريًّا يهوديًّا، ودمَّر ثلاث دبابات!!

"... لو أن الطاغية العلماني جمال عبد الناصر لم يعدم زعيمنا الشيخ سيد قطب -رضي الله عنه- لكنا استعدنا فلسطين كاملةً غير منقوصة، ولكنَّا رمينا اليهود في البحر المتوسط أو البحر الأحمر بين عشية وضحاها، إن هزيمتنا أمام اليهود انتقام الله منا على الفعلة الشريرة والشنيعة، وهي إعدام الشيخ سيد قطب، طيَّبَ الله ثراه، لكن بعودة الشباب إلى القرآن اليوم، وبفضل جنود جيش "التكفير والهجرة" و"قوات الإخوان المسلمين" سنعلنها حربًا جديدةً، وستكون نهاية إسرائيل ونهاية العلمانيين والشيوعيين والملحدين والمسيحيين وعبدة البقر والمثليين، وسيصبح العالم جنةً لا يوجد فيها سوى المسلمين".

يقول الداعية الأزهري محمود مرسي هذا الكلام وعيناه تبحثان عن لالة مولاتي التي تظهر وتختفي ما بين الصالون والرُّوَاق والمطبخ.

كان سيدي مولاي معجبًا بأحاديث الداعية، مأخوذًا بتفاصيل ما قام به على الجبهة ضد اليهود في إسرائيل، وهو في ذلك كان يعيد إليه ذاكرته في الثورة، ونضال الثوار، واستشهاد بعض الرفاق، وما عانوه مدةَ سبع سنوات من القهر والظلم وليالي الخوف المليئة بانتظار الموت المؤجَّل، وهو الذي التحق بصفوف الثورة شابًّا لم يبلغ العشرين كأغلبية منتسبي الثورة من المجاهدين، ونظرًا لمستواه التعليمي المتواضع آنذاك والذي يُعَدّ متميزًا مقارنةً مع مستويات التعليم لرفاق السلاح؛ فقد وُجّه إلى الجهاز الإداري والإعلامي للثورة، والذي كان مقره بمدينة الناظور المغربية، على الحدود مع الجزائر، وهناك وفي فترة قصيرة أسَّس أبوه الذي كان مُقعدًا يتحرك على عربة خاصة تجارةً رابحةً، وأصبح بيته الكبير الذي هو عبارة عن مزرعة عند المدخل الغربي للمدينة مقرًّا غير رسمي لقيادة الثورة، يجتمع فيه بعض القادة العسكريين والمدنيين لتداول يوميات الثورة على مختلف الجبهات من هواري بومدين إلى العربي بن مهيدي والعقيد عثمان وناصر بوعيزم وبوصوف وغيرهم.

9

إلهي، إنهما نسخة واحدة، إبداع رباني مدهش، متشابهتان في كل شيء، في تفاصيل الجسد، ملامح الوجه نفسها، الأنف الصغير، والشفتان المنتفختان قليلاً، والفم المرسوم بعناية فائقة، والعينان الواسعتان الغارقتان في ماءٍ أخضرَ مائلٍ نحو الزرقة قليلاً، والأصابع الطويلة المنحوتة من شمع حي نادر والمنتهية بأظافر ملونة بالأحمر الغزالي، والابتسامة نفسها، والضحكة أيضًا، ونبرة الصوت عند الفرح أو عند الغضب أو عند التعجب، ونفس تسريحة الشعر والقُصَّة وطول السالف الذي ينزل في شكل شلال ذهبي يصل الظهر إلى المنتصف، إنهما نسخة واحدة لمخلوقتين لا تفترقان أبدًا.

عصفورتان لعُشٍّ واحد.

الواحدة ظلٌّ للأخرى.

اسم الأولى جنينة، الثانية اسمها جميلة.

منذ أن جاءتا الحياة وهما ترتديان الألبسة نفسها، وتنتعلان نفس الأحذية وبذات المقياس واللون نفسه، ما يشترى للأولى يكون للثانية، ومنذ التحقتا بالمدرسة وهما تحملان المحافظ نفسها من أول سنة التحضيري إلى سنة البكالوريا، ترغبان في الأكلة نفسِها وتنفران من أخرى بنفسِ الشعور.

لم تكن لالة مولاتي قد بلغت العشرين من عمرها حين شَعَرت أول مرة بأمومتها وهي تعطي الحياة لملاكَيْن دفعةً واحدةً؛ جنينة وجميلة، وكانت سعيدةً بمجيئهما.

"... ستكونان لي بعد سنوات بمثابة الأختين".. كانت تقول هذا وهي تأخذهما بحنانٍ إلى صدرها، كل واحدة على ذراع.

تتقاسم جنينة وجميلة غرفة واحدة بالطابق الأول، منذ الصغر تعودتَا على النوم في سرير واحد، لا تفترقان أبدًا، الواحدة ظلٌّ للأخرى، حين تَحلُمان -يحدث هذا مرةً أو مرتين في الأسبوع، تَحلُمان الحُلْم نفسه أيضًا، وعند كل صباحِ ليلةِ حُلمٍ تحكي الأولى للثانية بدايةَ حُلْمها فتُنهي الثانيةُ حكايةَ الحُلم حتى الأخير، بتفاصيل الأماكن والناس والمطر والغيم والحر والغبار، وكأنما كانتا تشاهدان فيلمًا على شاشة واحدة، وتأملان نفس الأمل، وتسمعان وتتذوقان نفس الأغاني، بعض أغاني ميري ماتيو وداليدا ودوميس روسوس وعبد الحليم حافظ.. بلغتا ساعة موعد سر الدم الأنثوي في يوم واحد، في ساعة واحدة، بألمٍ واحد، من يومها تجيئهما العادة الشهرية في نفس اليوم، في نفس الساعة، وتؤلمهما بنفس الشدة أو الخفة، حين دقت ساعة موعد الدم أخذتا تتمنيان السفر بعيدًا عن عين أمهما التي لا تنام، تراقبهما ليل نهار، خروجهما بالدقيقة ودخولهما بالدقيقة، تفتش ألبستهما الداخلية كل صباح وكل مساء.

تقرأ جنينة وجميلة نفس الكتب، وتُعلِّقان بنفس التعليق بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب أو ذاك، هذه الرواية أو تلك.. قد تتوقف الأولى عن قراءة كتاب عند الصفحة السادسة والستين؛ لما قد تجده فيه من ملل أو غموض أو قسوة، ودون أن تخبر الأخرى تتوقف الثانية عند الصفحة نفسِها، عند السطر نفسِه مُطلِقةً العبارةَ نفسَها: "قسوةٌ، مللٌ أو غموضٌ".

مع ذلك كانت الكتب، خاصةً كتب علم النفس والروايات هي مَا يشدُّهما أكثر، تقضيان وقتهما بين صفحات الكتب، عشَرَات الشخوص كانت تُثير فيهما كثيرًا من الحُلم والهروب من بيت تلعب فيه الأم لالة بتول دور السجانة المحترفة والسجينة الكبرى.

على مدار السنة الدراسية، يتولَّى الأب سيدي مولاي مرافقة جنينة وجميلة كل صباح إلى الثانوية والإتيان بهما مساءً، يُنزلهما صباحًا على بُعد عشْرة أمتار من باب ثانوية سانت إليزابيت (زينب أم المساكين لاحقًا) ليأخذهما مساءً من المكان نفسه، تحت شجرة الصفصاف العتيقة ذات الظل الأسود الكثيف.

هذه الليلة، هرب النوم عن العيون الأربع، قالت الأولى للثانية، بعد أن لم يبقَ في البيت من صاحٍ، الجميع نيام، وقد أيقظَتْها من غفوتها، الواقع أن الأخرى لم تكن نائمةً إنما كانت تنتظر أن توقظها الأولى في مثل هذا الوقت لتقول لها ما كانت هي تريد أن تفاتحها فيه هي قبل قليل:

"قدرُنا أن نُحبّ رجلاً واحدًا (قالت جنينة)، أن نشترك في أنفاس رجلٍ واحدٍ (أجابت جميلة)، أن نتقاسم جسدَ رجلٍ واحدٍ على سريرٍ لثلاثة أشخاص (قالتاها معًا)، وتعانقتا كطفلتين ونامتا الواحدة في حضن الثانية حتى الصباح".

وفي الصباح حكت الأولى للثانية القسم الأول من حُلم، وأنهت الثانية حكاية الحُلم حتى النهاية: "شاب يدق باب المنزل.. ينزل من سماء صافية بجناحَيْ ملاك، يسير الملاك حافيًا في تراب الحديقة.. يتسلق السُّلم سبع درجات بسبع.. يدق باب غرفتنا.. توقظنا لالة مولاتي، حان وقت المدرسة".

ومن تلك الليلة، ومن ذلك الحُلم، بدأتا التخطيط لمشروع "حبّ رجلٍ واحد"، رجل يسكن قلبَيْهما ويقيم في رأسَيْهما المليئتَيْن بالكتب والقصائد والموسيقى، ما كانت تفكر فيه الأولى يشغل الثانية بنفس الإيقاع وبالوهج نفسه، كيف العثور على الرجل الذي يُحَب من قلبَيْن، يُشتهى من جسدَيْن؟ رجل مستعد أن يحب نَفَسَيْن في نَفَسٍ واحد.

الحياة مرات كثيرة تشبه لعبة الغُمّيضة!

ونزلت أنا -ابن سلوانة أو ابن أسافو، لا يهمّ- في ذلك اليوم، في ذلك الحُلم، ربما، في تلك اللحظة التي كانتا تفكران فيها في رجل مشترك لحياتهما، نزلت على هذا البيت وكأنما كنت أسمع ما كان يدور بخَلَدَيْهما وقد استجبت للنداء.

نزلتُ قدرًا من السماء..

أنا حُرّ بن يقظان..

حين شاهدتهما لأول مرة، كنت مندهشًا للشبه المطلق بينهما، لا أنزل عيني من عليهما، أحاول عبثًا أن أعثر على فارق بينهما كي أُميّز هذه عن تلك، لم أكن أفرُق بين هذه وتلك، حتى إنني كنت أستعين بقلم خشن أحمر، أضع خفيةً علامة X على طرف لباس الأولى وعلامتَيْ XX على

الثانية، وهكذا خرجتُ من ورطة الخلط بينهما، ومع مرور الزمن لم أعد أعير فكرة التفريق بينهما أهمية، فقد أخاطب إحداهما باسم الأخرى فلا تنزعج بل تجيب وكأنما هي الأخرى، كنت أخاطب الواحدة للاثنتين، منذ البداية وجدتُ في مجالسة جنينة وجميلة راحةً ما، نتناقش في الصالون حتى ساعة متأخرة من الليل، نشاهد فيلما على الشاشة ثم نتناقش حوله.

كان اقتراب موعد امتحان شهادة البكالوريا مناسبةً لنا نحن الثلاثة كي نتناقش أكثر، كي نقترب من بعضنا أكثر، نتقاسم الخوف والقلق والحلم؛ لأنه الموعد الذي يشغلنا ويُقلقنا جميعًا، كنا نذاكر معًا حتى ساعة متأخرة من الليل، أستعرضُ عليهما بعض ما أقرؤه تحضيرًا لشهادة البكالوريا، وكنت أسمع منهما أيضًا ما يشغلهما من دروس الفلسفة والتاريخ والآداب واللغة الإسبانية.

كنت ذئب الليل، أراقب حركات ونظرات لالة بتول بدقة وفي الوقت نفسه أتابع النقاش حول الحرب العالمية الثانية والإنزال الذي قام به الحلفاء على شواطئ نورماندیا، تحوم حولنا وعينها عليّ تراقب نظري المُسلَّط على الفريستين قُبَالتِي، وأنا أتابع طائرات التحالف وهي تحوم على مدينتَيْ روان Rouen وكائين Caen وتقصف المباني والكنائس، أنتبه إلى أنها غيَّرت لباسها وقد ارتدت لباس نومها الحريري الشفاف، تروح وتجيء وهي تراقبنا ونحن الثلاثة في الصالون نراجع بعض الدروس أو نشاهد فيلمًا وثائقيًّا عن تاريخ الثورة الجزائرية، فجأةً تلقي بعبارتها الشهيرة والمنتظرة: "كلٌّ إلى غرفته، حالاً".

نستيقظ مما كنا فيه..

تنسحب لالة البتول إلى غرفتها، تدير المفتاح، ننتظر قليلاً، وكالعادة تبدأ في إطلاق حمحماتها الشبقية التي تصل حتى الحمّام والصالون حيث نحن جلوس، تنظر إليّ جنينة ومثلها تغرس جميلة نظرها فيَّ، نبتسم، أشعر بنار تتسلق جسدي.. تحمرّ وجنتا جنينة ويشتعل وجه جميلة، بنفس مقدار الحمرة.

ننسحب وسط هذه الحمحمات إلى غرفتَيْنا وقد سقط من رؤوسنا ما حاولنا حفظه وتثبيته في رؤوسنا من دروس ومراجعات عن الحرب العالمية الثانية وقوة الجيش الأحمر في معركة ستالينغراد، أعانقهما ونحن نتسلق درجات السلم، درجةً بدرجة، جنينة على اليسار وجميلة على

اليمين، بذراعي أشدّ على خصرَيْهما، الخصر نفسه، العطر نفسه، أنفاس متقاطعة وبذات الوتيرة من الجهتين، قلبان يدقان بوتيرة واحدة، أمدّ يدي اليمنى إلى رقبة جنينة واليسرى تتسلل إلى رقبة جميلة، حُبَيْبَات عرق، وشعر ناعم، أوصلهما حتى عتبة غرفتِهما في الطابق الثاني، أعود إلى غرفتي في الطابق الأول.

أشعر بجسدي يلتهب، نار مولعة في حطب، أرمي بجثتي النحيفة على السرير، وأحاول أن أنام، وقبل أن يسحبني النوم إلى عالمه السحري، أحلم بأنني سأدخل سريرهما في الليلة القادمة.

هذا المساء كما المساءات الأخرى بعد العشاء، نستعد للمراجعة، نفرد كتبنا ودفاترنا على الطاولة الكبيرة في الصالون، التليفزيون يبثّ مسلسلاً مصريًّا بدون صوت، لقطاتٍ تافهةً وممثلاتٍ وممثلين ما عادوا يثيرون أي رغبة في المشاهدة، حكايةَ حُبٍّ منتهية الصلاحية، لغةً وحوارًا مكرورًا وجاهزَ الصنع.

بدأ نقاشنا في مادة الفلسفة، تناقشنا طويلاً حول قصة "حي بن يقظان" لابن طفيل، والتي هي مبرمجة في مقرر الفلسفة، وقد أعجبتني الحكاية لما فيها من تشويق، وأيضًا لقربها من حكايات لطالما سمعتُها من أسافو.

"... هي حكاية الطفل حي بن يقظان الذي ولد من علاقة زواج غير معلنة؛ إذ إن شقيقة ملك إحدى الجزر الهندية تزوجت برجل اسمه يقظان دون أن تخبر أخاها الذي كان يعارض مثل هذه العلاقة، وبمجرد أن ولدت المرأة، وضعت الطفل في تابوت وألقت به في البحر، دفعت الأمواج المولود حتى شواطئ جزيرة الواق واق، وإذا بغزالة تمرّ بالقرب من التابوت المُلقَى على الشاطئ، وهي التي جاءت بحثًا عن ابنها الذي ضاع منها، تسمع بكاء الرضيع فتسرع إليه وتتبنَّاه بأن أرضعته وكانت سببًا في إنقاذه...".

كانت الواحدة منهما تحكي، صاحبة علامة X أو صاحبة العلامتين XX لا يهم، كنت أتابع حركات فمها وهي تتكلم، وأشعر بسربِ نملٍ يتسلَّق جسدي من أخمص القدمين إلى قمة الرأس، كنت أستمع إلى الحكاية وأنا أتصوَّر الطفل يرضع ثدي الغزالة بشهية.

طال بنا النقاش حول الحكاية وتداولها بين ابن سيناء وابن طفيل والسهروردي وابن النفيس ودانييل ديفو صاحب "روبانسون كريزوي" حتى ساعة متأخرة، حتى صعد شخير لالة البتول،

ليصل فيغطي على صوت التليفزيون الذي يعرض الآن مسرحية "القراب والصالحين" لولد عبد الرحمن كاكي.

فجأة تخيلتُنِي ذلك الطفل الذي يبحث عن ثدي غزالة، أنا الضائع بن يقظان، تصورتُنِي تمامًا كما في تابوت ترميني الرياح من موجٍ إلى آخرَ وترميني الموجة من شطٍّ إلى آخرَ، أنا الذي ضيَّع الدهر أمَّه، وضاع مني السبيل لأجد نفسي في هذه الغابة الخالية التي تسمَّى مدينة الجزائر العاصمة.

فتحت فمي وبكيت، بحثًا لا عن حليب ثدي، بل عن حليب حنان، عن وسادة أضع عليها رأسي المُثقل بالخوف والقلق والترحال، أشعر بالغربة في هذه المدينة الغابة، أنا الغريب، لست أدري لماذا سكنتني فكرة الرضاعة.. الرضاعة تقاسُم الرُّوح، لا تقاسُم العيش، أنظر من حولي في هذا الخراب الموحش بحثًا عن غزالة تمنحني ثديها كي أشعر بوجودي وبوجود الآخرين، أبحث عن عينَيْ غزالة لأرى من خلال جمالهما بهاء العالم المختفي خلف أسوار الكراهية العالية، أخرجتُ رأسي من التابوت فجأةً وإذا أنا أمام غزالتين متشابهتين، أمام واحدة في اثنتين، أو اثنتين في واحدة، بعدها لم أستطع أن أرفع عيني من على نهدي الغزالتين، جنينة أو جميلة، بالعلامة أو بالعلامتن، أربعة نهود صاهلة أمامي، حين أكون في مثل هذه الحالة أتمنَّى أن يختلط عليَّ الأمر فلا أُميِّز بين جنينة وجميلة، الواحدة في اثنتين، الاثنتين في الواحدة؛ أشعر بالسعادة لهذا الخلط، لا أريد أن أعرِف.

لم أنتبه إلا وأنا كمثل طفل الغابة، حُرّ بن يقظان يرضع من أربعة نهود، من غزالتين، كنت أمصّ من هذه الحلمة فتناديني الأخرى، أُغمغم فتُنحنح جنينة أو جميلة.. من الثدي كنتُ أسحب ضوءًا غريبًا يستقرُّ في مفاصلي.

تسلقنا السُّلم، طِرْنا، حلّقنا، لم نتسلقه كالعادة درجةً درجةً، كانت لنا أجنحة، رضاعة الثدي تمنح الجسد أجنحةً كأجنحة الملائكة، كنت أفكر فيَّ مرميًّا في تابوت بغابة تسمى مدينة الجزائر، على شاطئ مُوحش وغزالتان تُغدقان عليَّ الحياة وتُبعدان عني وحشة المكان وفراغ القلب. وانزلقنا أو بالأحرى حطّت بنا أجنحتنا الملائكية هذه المرة، ولأول مرة في غُرفتهما، على سريرهما، بكل فوضاه التي تُشبه فوضى الغابة الجميلة الساحرة، أول مرة أحطّ في هذا المكان الأنثوي، لم يكن في هذا الوجود سوى الثدي والحياة.. أنا حُرّ بن يقظان، أمامي غزالتان.

بين غزالتين أتمدَّد على سريرهما الذي يشبهني في فوضاي: الفوضى التي في رأسي، والزوابع التي في جسدي.

لأول مرة أرى جسد امرأة عاريًا، بل اثنتين، كنت في حالة احتراق، وكانت جنينة ومثلها جميلة، الغزالتان، ذائبتين كقطعتي زبدة فوق خُبزٍ بلدي ساخن.

لم أستيقظ إلا على صوت لالة البتول قادمًا من الطابق الأرضي مناديةً على جنينة وجميلة طالبةً منهما الإسراع؛ فسيدي مولاي ينتظرهما بالسيارة لإيصالهما إلى الثانوية.

حين انتبهتُ وجدتُ نفسي وحيدًا مُمدَّدًا على السرير، وقد غادرتِ الغزالتان الغابة، لملمتُ نفسي على عَجَلٍ، وحافيًا نزلتُ إلى الطابق الأسفل، تسللتُ إلى غرفتي وأكملتُ نومي، وافتعلتُ وجعًا في الرأس، مما اضطر لالة البتول الطيبة أن ترفع السماعة وتُعلم الحارس العام بالثانوية بأنني مريض وأنني سأتغيَّب هذا اليوم.

طيّبة، هي لالة البتول.

حين تكون رائقة المزاج، أكون على يقين بأن الأزهري سيجيء اليوم، وحين يجيء الداعية تبدو لطيفةً ومتسامحةً مع الجميع.

من ليلة درس "حيّ بن يقظان"، بدأتُ أُخاتِل لالة مولاتي وأقضي ليالي في غابة بغزالتين أرضع من أربعة نهود متشابهة في الحجم وفي لون الحلمات المائل نحو الحمرة..

حُرّ بن يقظان، أنا.

نحن الثلاثة، كنا في تنافُسٍ وُدّيٍّ وساخنٍ حول التحضير لامتحان البكالوريا الذي اجتزناه في السنة نفسها، وكانت فرحتنا مشتركةً وكبيرةً يوم الإعلان عن النتائج، فقد نجحنا ثلاثتنا، لقد حصلتَا عليها بنفس الدرجة وبنفس التقدير: لا بأس به.. حصلتُ أنا أيضًا عليها لكن بدرجة ممتاز، وكنتُ الأولَ على مستوى الولاية، وقد كتبَتْ عنِّي جريدة "المجاهد" مقالاً صغيرًا مزينا بصورة لي، كنت فخورًا بذلك، وكانت جنينة وجميلة، على الرغم من حس المنافسة، سعيدتين أيضًا بالنتيجة التي حصلت عليها، لم يُثِرْ ذلك غَيْرتهما، مع ذلك لم تستطع لالة بتول كتم غيظها؛ فانفجرَتْ في ابنتَيْها قائلةً: "جاء مِن آخر الدُّشور، وها هو الجورنال يتحدث عنه وينشر صورته كرئيس دولة!!".

أثر فيَّ كلام لالة بتول التي أُحبّها كثيرًا وأغار عليها من عيون هذا الأزهري الشرس، ولكني بمجرد سقوط الليل، وما إن دخلتُ سرير الغزالتين حتى نسيتُ كلامها، سامحتُها وشكرتُها لأنها قبِلَت بــي في هذه الغابة وحوَّلتني من آكسل الروخو إلى حُرّ بن يقظان.

وبقَدْر فرحتها بنجاح التوأم في امتحان شهادة البكالوريا، وسعادتها وهي تستقبل المُهنّئات والمُهنّئين بالحلوى والشاي والزغاريد إلا أن حالةً من الخوف كانت تسكن قلب لالة بتول؛ فهي لا تريد لابنتيها أن تلتحقا بالجامعة التي أصبحت مرتعًا لأفكار الطلبة الشيوعيين، كما أكَّدَ على ذلك الشيخ الأزهري.

"لا تمنحي ابنتَيْكِ لفم الذئب الجائع"..

وكنت الذئب الذي ينام في الفراش دون أن يؤذي واحدةً من الغزالتين، أنا حُرّ بن يقظان.

كان قرار التحاقهما بمدرسة تكوين أساتذة التعليم المتوسط الخاصة بالبنات هو الحل النهائي والمناسب للالة بتول، سنة واحدة من التكوين وبعدها تلتحقان بالوظيفة كمُدرِّستين بالكوليج.. في الوقت نفسه قررتُ أنا أن أكون طبيبًا نفسانِيًّا.

بمجرد أن يضع ابن الفقير أليتَيْه الصغيرتين النحيفتين المُعَظمتين على كرسيٍّ مدرسيٍّ، يكون قد شرع في الحُلم الذي يدوم سنوات، حُلم أن يُصبح طبيبًا أو مهندسًا أو معلمًا أو شُرطيًّا.

مع الدخول الجامعي، وبعد صيف قضيتُ أغلب لياليه في غابةٍ بغزالتين، شَعَرْتُ بحزن كبير وأنا أستعد لفراق جنينة وجميلة، لقد اخترتُ أن أضيعَ ثانيةً، اخترتُ أن أُقيم بالمدينة الجامعية، أن أستقلَّ بنفسي في غرفة، أن أهرب من عينَيِ الأزهري.. وكان ذلك لي مؤلمًا.

10

للجامعة هَيْبَتُها، بالنسبة لي أنا حُرّ بن يقظان، الوصول إلى الجامعة هو بداية التسلق إلى رأس الجبل، قمة هرم المجتمع.

أولُ يومٍ دخلتُ فيه المدرج الجامعي، كان ذلك نهاية شهر سبتمبر، كان يوم اثنين، علامات الخريف تظهر على سماء حزينة وغائمة قليلاً، وغبار ترفعه ريح قلقة، خفيفة تارة ومجنونة تارة أخرى، بين أروقة بِنَايات الجامعة، رطوبة البحر أقل ثقلاً، لقد خرجنا من حَرّ الصيف الخانق، كانت أول محاضرة أحضرها لدكتور جزائري تبدو لغته العربية سليمةً، يتكلمها كالمستشرق بدقة علمية عالية، وأنا أتابع جدية الأستاذ وهو يشرح لنا بتعب كبير بعض مصطلحات أوّلية في علم النفس، التعريب يزحف على الكليات، وهو ما اضطر كثيرًا من الأساتذة الذين كانوا يدرسون بالفرنسية إما أن يتعرَّبوا وإما أن يهاجروا إلى جامعات فرنسية وكندية وبلجيكية وأمريكية؛ بذلك خسِرَت الجامعة كثيرًا من الكفاءات العلمية العالية واستبدلتها بأساتذة من الدرجة الثالثة، شعارات التعريب مرفوعة في كل مكان، "اللغة قبل العلم"، حُرّاس القومية من بعثِيِّين جزائريِّين فرحون بذلك، الغضب سيد الموقف.. البلاد في مهب ريح أيديولوجية خطيرة بين عروبيين وإسلاميين.

كنت أتابع مُحَاضرة الأستاذ، وأسمع هتافات قادمة من النافذة لمجموعة من الطلبة في مسيرةٍ داخلَ الحرم الجامعي مطالبين بالتطبيق الفوري للتعريب ومنع اللغة الفرنسية في التعليم وفي الإدارة.

تذكرتُ أسافو التي كانت تقرأ لي أشعار رامبو وفيكتور هيغو وتبكي غياب الرجل الذي علَّمَها ركوب الخيل (يعقوب عسل - الزمن).

وإذْ انتبهتُ فوجدتُ طالبًا بلباس أنيق يجلس إلى جانبي في هذا المدرج البسيط، حين تبادلنا التحية العابرة ثم بعض عبارات المجاملة الخاطفة؛ أدركتُ من لهجته وعلى الفور بأنه من بلد عربي مشرقي، اعتقدتُ في البداية بأنه مصري، كل شرقي في عين الجزائري هو مصري، أنا لا أُميّز جيدًا بين اللهجات المشرقية.. وبعد نهاية المحاضرة، وأمام باب المدرج تبادلنا الحديث بشكل مُسهب، وقدَّم لي نفسه، فإذا هو طالب فلسطيني من قطاع غزة، واسمه ياسر البرغوثي، وأنه كان يدرس بالقاهرة وبعد زيارة الرئيس المصري أنور السادات لإسرائيل، وخطابه واستقباله في الكنيست، وخروج الشارع العربي في مسيرات حاشدة في كثيرٍ من المدن والقرى مُندِّدًا ومطالبًا برأس الرئيس المؤمن، قررَتْ إدارة الجامعة المصرية، شَطْب جميع الطلبة الفلسطينيّين واليمنيّين من الكليات وطرْدَهم من البلد؛ مما اضطره بمعيَّة كثيرٍ من الطلبة الآخرين من تخصُّصات مختلفة إلى الالتحاق بالجامعة الجزائرية بعد أن وفَّرَت لهم الدولة الجزائرية مِنَحًا وغُرفًا في المدينة الجامعية، وكذا بطاقة طائرة سنويًّا لكل طالب.

لم يسبق لي أن التقيتُ أو عرفتُ قبل هذا اليوم شابًّا فلسطينيًّا، بلَحْمه وشَحْمه، كنتُ لا أعرف الفلسطينيّ إلا من خلال بعض قصائد محمود درويش، أو ألوان العَلَم، أو بعض الأفيشات التي تُعلّق بمناسبة يوم الأرض، أو من خلال البرنامج الإذاعي "الثورة الفلسطينية" المعبَّأ بالحماس الثوري، والذي يُذَاع على أمواج الإذاعة الوطنية، القناة الأولى، يوميًّا من الساعة الخامسة إلى السادسة مساءً، كنتُ أعتقدُ أن الفلسطينيّين هم من فصيلة الملائكة، وأنهم حين يتكلمون، يتكلمون فتشعّ من عيونهم صورة القدس في شكل شمس دافئة رحيمة ترفرف عليها ملائكة مُجنَّحة، لم يكن هذا إحساسي أنا وحدي، بل كان شعور الجميع من طالبات وطلاب دُفعتنا.. هو تصوُّر الجزائريّ بشكلٍ عامٍّ.

الفلسطيني لا يُخطئ..

الفلسطيني لا يخاف..

الفلسطيني لا يضحك..

الفلسطيني لا يحب امرأةً.

الفلسطيني يحب القضية..

الفلسطيني لا يكذب..

الفلسطيني لا يسكر..

الفلسطيني يصلي..

الفلسطيني لا يدخن..

الفلسطيني لا يبكي..

بعد هذا اللقاء العابر تطورَتْ علاقتي بياسر البرغوثي، وبسرعةٍ تحطمَتْ الحواجز بيننا، وشَعَرتُ به أخًا لم تلده سلوانة، وكأنني بُعِثْتُ لأكون له عونًا، وبُعِثَ كي يكون لي صديقًا من بلاد تُشرق منها شمس الله، اقترحتُ عليه، على الفور، أن يُغيِّر غرفته وأن يأتي للإقامة معي، فالطالب الذي كنتُ أتقاسم وإياه الغرفة غيَّرَ تخصصُّه وانتقل إلى المعهد الوطني للبترول، هكذا وفي اليوم الموالي وافقَتْ إدارة الحي على طلب تغيير الغرفة، وهل هناك إدارة ترفض طلبا لفلسطيني؟! وانتقل ليقيم معي في نفس الغرفة G76، كنتُ سعيدًا بهذه الرفقة، أسعدَ إنسان على وجه الأرض، في الليلة الأولى التي قضاها معي في الغرفة، أحسستُ وكأن القدس تنام في السرير المقابل لسريري، حطَّت من السماء في غرفتي، لم أنَمْ، ولأول مرة لم أفكر في الغزالتين جميلة وجنينة، في فترة وجيزة أصبحنا كالتوأم لا نفترق، لا نُرَى إلا معًا، في المطعم، وفي النادي، وفي الغرفة، كان يحفظ بعضًا من قصائد الشاعرين: محمود درويش، وتوفيق زياد.. كنت فخورًا جدًّا بصداقته، بل وجدتُنِي أكثر حظًّا من زملائي الطلاب بهذا العيش المشترك، والذين بمجرد أن عَرَفوا أن ياسر الفلسطيني يقيم معي تحوَّلت غرفتي إلى فضاء مفتوح يلتقي فيه الكثيرون مِن الذين يدفعهم فضول التعرف إلى الفلسطيني بلَحْمه وشَحْمه، وعن فلسطين التي يحمل قُدْسَها في لون عينيه.. عشَرَات الطلبة كانوا يجيئون للسهر معنا حيث نظل نتحدث ونتناقش حتى مطلع الفجر، نشرب قهوةً فوق أخرى، شايًا فوق آخر، ونحلم بالحرية، ونهاية الاستعمار، وطلوع شمس العدالة، وإغلاق أبواب السجون، ونهاية الظلم والمنافي والحروب، نتناقش حول اليسار والثورة، وفلسطين هي البدء وهي الختام في كل مسامراتنا الليلية.

وكنت كغيري من زملائي الطلبة لا أتوقَّف عن طرح الأسئلة: أسأله عن القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، عن أشكال النضال الفلسطيني، وعن الحرب الباسلة اليومية التي يخوضونها ضد

إسرائيل، عن عيش الفلسطيني تحت الاستعمار والعنصرية، في الوقت الذي كنا ننتظر منه أجوبةً جديدةً، كان كلامه عبارةً عن ترديدٍ لعبارات وشعارات لطالما سمعناها من الإذاعة الجزائرية، أو مثيلاتها العربية، أو مِن خُطَب الرؤساء والملوك على السواء في المؤتمرات التي تتكرر حاملةً نفس البيانات الختامية أو تلك المقالات الحماسية التي نقرؤها في الجرائد.. الجميع يُحيِّي بطولة الفلسطيني الثَّوْريّ المجاهد المُقاوِم ويَعِدُ بأنَّ النصرَ قادم، على بُعد خطوةٍ، على بُعد يومَيْن، على بعد نصفِ ساعةٍ.. كلامه لم يكن ليشفِيَ عطشنا ولهفتنا، ها هو نصفُ قرنٍ قد مضى وفلسطين تأخذ شكلاً آخرَ، والعرب يتصالحون فرادى أو جماعاتٍ مع إسرائيل، بالسر أو بالعلن.. مع ذلك، وأمام أسئلتنا الكثيرة، وحرارة التفافنا حولَه واحتفالنا به، كان ياسر البرغوثي يبدو حزينًا، وكنتُ أشعر بأنه كان يتهرَّب من بعض الأسئلة.

مراتٍ كثيرةً كنت أصحو عند منتصف الليل وأتفقَّد أنفاسه؛ خوفًا عليه من مكروه قد يلحق به، سكنني إحساس غريب، منذ أن أقام معي ياسر الفلسطيني هذه الغرفة، هو أن أقوم ذاتَ صباح فأجِدَه ميتًا في سريره.. هاجسٌ يقلقني ويؤرّقني، لا لشيء إلا لأن الفلسطيني في ذهني شخص ليس له أن يموت في السرير، موتُه مكتوبٌ عليه في ساحة الحرب، على أطراف القدس الشريف، عند سور المغاربة، حاملاً رشاشًا ورايةً فلسطينية وصورةً للقدس.. مراتٍ أشعر كأنني أنا سبب موته فوق السرير؛ لأنني عرضتُ عليه أن نتقاسم هذه الغرفة.. يحدث مراتٍ أن أقف أمامه أُحدِّق في ملامحه وهو يغطّ في نوم عميق مع شخير مُتقطِّع فأتساءل: كيف، وبماذا يحلُم الفلسطيني يا ترى حين ينام؟ دون شكٍّ، فحُلمه لا يتعدَّى أسوار القدس، وبيت لحم، ورام الله، وغزة، ونهر الأردن، وزيت الزيتون والزعتر، وتلك أقصى الأحلام وأعظمها.

في أروقة الجامعة، وأنا أتابع حركاته وخطواته وأحاديثه، كنت أرى في ياسر البرغوثي ملاكًا يحوم فوق بنايات الجامعة، ملاكًا يمشي على قدمين حافيتين، لا ينطق إلا بما هو مطلوب، لا يكذب، لا يشتم، لا يخاف، لا يسرق، لا يغش، لا يحب، لا يكره، لا ينام كما ننام، له أحلام غير أحلامنا نحن الذين لنا ضَعْف أمام حضور الطالبات والسيجارة والنبيذ والسفر إلى الخارج.

مع مرورِ الأيام، بدأتُ ألاحظ بعض التغيير على إيقاع حياة ياسر الفلسطيني، الذي كنا نناديه منذ الأسبوع الأول باسم: ياسر عرفات، وكان مبتهجًا بهذه التسمية النضالية التي أطلقناها عليه.

بعد أسابيع لم يعُدْ ياسر عرفات يكترث للمحاضرات، يغيب عن الدرس باستمرار، وحين يحضر يبدو منشغلاً بشيءٍ يدور في رأسه فلا ينتبه إلى ما يقوله المحاضر، ولا يُسجِّل أي ملاحظة أو فكرة مما يَرِد في حديث الدكتور، حاولتُ أن أجدَ جوابًا مُبررًا لذلك قائلاً بيني وبين نفسي: إن الفلسطيني من أمثال الطالب ياسر البرغوثي لا يحتاج إلى دروس، الفلسطيني هو من يُقدِّم دروسًا للعالم: في الثورة، كما في علم النفس، والتاريخ، والجغرافيا، والأخلاق، والانضباط، والفلسفة.

مضت السنة الجامعية بسرعة، وها هو الصيف على الأبواب، ومدينة الجزائر تلتفت للبحر قليلاً، شمس شهر مايو الحارّة تُنعش الأجساد وتوقظ الأحاسيس، اقتربت السنة من نهايتها، ومعها جاءت فترة الامتحانات بقلقها وسهرها، في الأحياء الجامعية يراجع الطلاب دروسهم في الأحياء الجامعية تحت الأشجار نهارًا، وتحت ضوء أعمدة الكهرباء العمومية ليلاً، حركة غير عادية في الغُرَف، دخل الطلاب والطالبات جميعهم في حمّى التحضيرات والمراجعات من خلال سهرات يومية تمتد حتى آخر الليل، مع ذلك لم يكن ياسر البرغوثي -أو ياسر عرفات كما كنا نناديه- مُنشغلاً بتفاصيل هذا العالم الذي يُقلقنا، ويُؤرِّقنا، عالم الامتحانات والخوف من الرسوب، حيث هدفنا الأكبر هو النجاح، ومع ذلك كنتُ أبحثُ عن مبرر لهذه اللامبالاة التي يقابل بها ياسر البرغوثي امتحانات آخر السنة، فأقول في نفسي: هذه المعركة، معركة الامتحانات هي لعبة أطفال بالنسبة لفلسطينيٍّ قادمٍ من القدس، ابن الثورة والنضال والموقف الصارم.

... انتهت فترة الامتحانات، وأخيرًا تنفَّس الطلاب، وفي انتظار الإعلان عن النتائج عُدْنا إلى إيقاع حياتنا الطلابية العامرة بالنقاش السياسي والحُلم والحُبّ والتحدي، تغيَّرَت تصرفات صديقي الفلسطيني، وما عاد ينام في الغرفة إلا نادرًا، لا يُرَى إلا مُحاطًا بالطالبات، مُعانقًا هذه أو تلك، يُغيِّر لباسه كلَّ يوم، قمصان زاهية اللون وسراويل مكوية بشكل رائع وأربطة عنق، وسيجارة بين الشفتين، ما عُدْنا نلتقي كثيرًا، لقد امتلأ عالمه وخرجتُ منه أو كِدْتُ.. وما هي إلا أيامٌ حتى بدأت النتائج الأولى تظهر، قلقُ الانتظار يملأ قلوب الجميع، يتجمَّع الطلاب والطالبات في تزاحُمٍ أمام اللَّوْح الذي تُعلَّق عليه القوائم.. مع تلك الثقة بالنفس، وتلك الابتسامات التي يُوزِّعها يمينًا ويسارًا على الطالبات، كنت على يقين بأن سالم البرغوثي، صديقي الفلسطيني سيكون صاحبَ أعلى علامة، أن يكون في المرتبة الأولى، وهو الإحساس نفسه الذي كان يراود الجميع، وحتى وإن كانت بيننا نحن الطلبةَ الجزائريِّين منافسة إما ظاهرية أو باطنية على مَن سيحتل المرتبة الأولى، إلا أن هذه المنافسة لم يكن مِن ضِمْنها الفلسطيني، فإن يحصل هذا الأخير على الدرجة الأولى فهذا لا يثير

غيرةَ أيِّ واحدٍ منّا، بل تلك هي مكانته الطبيعية، في المقدمة دائمًا، بل هو ما كنَّا نتمناه، ففلسطين يجب أن تكون في المقدمة دائمًا.

لم أُصدِّق عينَيّ، دُهِشْتُ، حزِنْتُ وأنا أتطلَّع إلى النتائج، أعدتُ تدقيق النظر مراتٍ ومرات، ومثلي فعل الآخرون، وانزعجتُ كما انزعج الكثيرون من زملائي وزميلاتي؛ إذ وجدتُ نقاط الفلسطيني ياسر البرغوثي أو ياسر عرفات ضعيفةً جدًّا، حيث جاء اسمه في آخر القائمة المُرتَّبة حسب معدل الامتحانات، قلتُ بيني وبين نفسي: مؤكدٌ أن في الأمر خطأً ما، فلا يمكن لفلسطينيٍ -ابن القدس- مطرودٍ من جامعة القاهرة؛ لأنه عارَضَ زيارة الرئيس أنور السادات للقدس وأدانَ خيانته للقضية القومية الكبرى التي هي معركة فلسطين، أن يحصل على علامة أربع من عشرين في التاريخ، وست من عشرين في اللغة العربية، في حين كانت علاماتي أنا ابن سلوانة الأمازيغي الذي تربَّيْتُ على قصائد رامبو وفيكتور هيغو من على لسان أسافو عاشقة مربـي الخيل يعقوب عسل- الزمن، تتراوح بين الست عشْرة والثماني عشْرة.

في اليوم الموالي لإعلان نتائج امتحانات السنة الأولى، التقينا في الغرفة -ياسر البرغوثي أو ياسر عرفات وأنا- حاولتُ أن أتجنَّب النظر إليه حتى لا أحرجه، وبدأ الزملاء يَصِلون الواحد بعد الآخر إلى الغرفة للتعليق على النتائج، وفي أقل من ساعة امتلأت الغرفة بدخان السجائر، تمنيتُ ألا يفتح أحدهم حديثًا حول النتائج؛ خشيةَ أن نجرح مشاعره، وبالفعل حاول الجميع تبادُل بعض النكت والطرائف السياسية والجنسية محاولةً لجرّ الأحاديث بعيدًا عن موضوع الجامعة وما يدور في فلكها، لم يسأله أحدٌ عن علاماته.. ومع ذلك بدا غير مُكترث بمثل هذه النتائج، بل إنه، وللمرة الأولى، أخرجَ قِنِّينَة ويسكي، فتحَهَا، صبَّ لي كأسًا، وكانت المرة الأولى في حياتي التي أذوق فيها هذا المشروب الذي كنا نعتبره نحن شرابًا أمريكيًّا إمبرياليًّا، دارَ الكأس بيننا ونسينا الامتحانات والنتائج وفلسطين، وغنَّى لنا ياسر البرغوثي عتابا فلسطينية، وشَرَعَ يُعلّمنا كيف نرقص الدبكة، ورقَصْنا معًا الدبكة الفلسطينية مخلوطةً برقصة العلاوي المسيردية.

امتدت سهرتنا تلك الليلة حتى أطلَّ الصباح علينا بأشعة شمسه من خلف النافذة، غادر الزملاء الغرفة واحدًا واحدًا، انسحبوا في كثير من التعب.

لم نصحُ إلا بعد الثانيةَ عشْرَةَ ظُهرًا، وجها لوجه ونحن نحتسي فنجاني قهوة أعدَدْتُها في الغرفة عادت قضية نتائج الامتحانات المخيبة التي حصل عليها صديقي الفلسطيني تُقلقني، ولتناسي

هذا الخيبة عُدْتُ أسأله عن تفاصيل الأعمال البطولية التي قام بها هو، أو شارك فيها، أو قام بها بعضٌ من أقاربه أو معارفه ضد المحتلّ الإسرائيلي، أسأله عن قائمة أسماء الشهداء الذين يعادل دمهم مداد العلماء ويتساوون مع مرتبة الأنبياء.. كل ذلك كي ينسى نتائجه المخزية؛ للتخفيف عنه قلت له: إن ما يشغل حياة الفلسطيني في مثل هذه الأيام السياسية العصيبة ليس التحصيل العلمي وحَصْد علامات عالية في امتحانات جامعية، إنما همُّه المبدئيّ هو النضال والاستشهاد من أجل الحرية والتحرر واستعادة القدس.. كنت أتحدَّث بكثيرٍ من الحسرة والألم، وكان سالم البرغوثي يحتسي قهوته بهدوء، سابحَ الذهن، تركني وقام إلى المرآة، حلَقَ وجهَهُ، تعطَّر، غيَّرَ قميصه الصيفي الورديّ بواحدٍ أزرقَ حريريٍّ شفَّاف، مسَحَ حذاءه، وخرج بعد أن حيَّاني مُبتسمًا وسيجارةٌ مارلبورو بين شفتَيْه.

متأخرًا قليلاً، عاد في المساء محتضنًا حقيبةً مليئةً بقَنَانِيّ النبيذ والويسكي، استقبلتُهُ وأنا لا أزال تحت صدمة نتائجه المخيبة، رتَّبنا طاولةً ببعض شرائح لحمٍ مع صحنٍ من الطماطم والزيتون والبصل والفُلفُل الأخضر، التحق بنا بعض الطلبة، وبهدوء عميق وبعد الكأس الثانية أخذ يُحدِّثنا عن ابن عمٍّ له يُسمَّى هشام البرغوثي، من جيله، يعيش في لوس أنجلس بالولايات المتحدة الأمريكية، وأنه حصل منذ ستة أعوام على الجنسية الأمريكية، وأن بينهما مراسلات مستمرة، وأن ابن العم هذا الذي درس معه حتى السنة الخامسة إعدادي في غزة يسعى مع السلطات المحلية والجمعيات الأهلية لكي يُرتِّب له الوضع من أوراقِ إقامةٍ وعقدِ عملٍ للالتحاق به هناك: "العيش في أمريكا أفضل من العيش في الدول العربية المتخلفة". هكذا علَّق، وهو يُخرج عُلبة سجائر مارلبورو من جيبه، يحرق واحدةً أخرى، ويُمرِّر العُلبة على الحاضرين.

صدمني حديثه..

شربتُ كثيرًا تلك الليلة.. شَعَرت بجُرْح غائر وبإحساس غريب..

مِن لحظتِها، لستُ أدري لماذا ولا كيف بدأت قناعاتي السياسية الساذجة تتآكل، وأخذَتْ صورة الفلسطيني تنزل من سماء الملائكة المُجنَّحين إلى واقع الشياطين البشرية، شياطين مثلنا جميعًا، غَرْقَى التخلُّف، والكلام الفارغ، والحُلم الذي يشبه الحَمْل الكاذب.

11

أنا حر بن يقظان.

كنت أَلُقِّبُها بالمراكشية، منذ أيامي الأولى في الجامعة وجدتُنِي أتعرَّف على طالبة تكتب الشعر المُقفَّى والحُرّ، تُشبه في لباسها الراهباتِ المسيحياتِ اللواتي كُنَّ يُدِرْنَ مستوصفًا صغيرًا ومدرسةً بغرفتين ملحقتين في قرية التفاحة حيث درستُ سنوات التعليم الابتدائي، كُنَّ جميلاتٍ، نظيفاتٍ، محترماتٍ، مُضحِّيَاتٍ.. ما أثارني فيها، في البدء، جلابتها المغربية ذات اللون الورديّ المُخطَّط، ريفيةٌ أخلاقُها، وخجلها، إضافةً إلى ما كانت تثيره من إغراءٍ فيّ وهي تُطلِق شعرها الطويل المسدول خلف ظهرها، تمشي كما تمشي أمي سلوانة بتبختُرٍ وغُنْجٍ، مع خجلٍ مُفتعَل، تصلي الخَمْس، وتقرأ قليلاً من القرآن في الليل قبل أن تنام، عادة أخذَتْها عن أمها التي استفاقت يومًا لتجد نفسها تنام على سرير واحد جنبًا إلى جنبٍ مع زوجة ضُرَّة يفصل بينهما زوجهما، سريرٌ ثلاثيّ، بمجرد أن بدأت علاقتنا تتوطد وتتعمق أدركتُ أنَّ مظهرها الدينيّ هو شكليّ ومن باب التقاليد، وأن تلك ثقافةٌ متفشيةٌ بين نساء وبنات المدينة الحدودية الصغيرة التي تنزل منها، والتي فيها وُلدت ودرست سنوات التعليم الابتدائي، مدينة مشهورة بتهريب البنزين والحشيش والويسكي والألبسة النسائية الداخلية.. منذ جلساتنا التي كانت تريدها بعيدًا عن أعين الطلبة شَعَرْتُ بها مُتوثِّبةً، حارّةً، تغلي من الداخل، كانت لا تتوقف عن اللعب بأصابعي وهي تقول: "أصابعك تهبلني، تُجنِّنِي، يا طيرَ الليل"، هكذا كانت تُسمِّيني؛ لأنها كانت تعرف أنني لا أنام الليل إلا قليلاً، أحب الاستماع إلى الأغاني الكلاسيكية الرومانسية الفرنسية، وأقرأ بعض كتب الأساطير وعلم النفس.. ثم تبتسم وتُدخِل أصابعها في شعري الطويل، وتضيف: "وشعرك الطويل على طريقة الشخصيات الأسطورية، يقتلني، يفتتني كرملٍ على شاطئ تحت ريح عنيفة"، ونضحك، ونقتسم علكة تُخرجها من حمالة

نهدَيْها، تنزِع الغلاف الورقي عن العلكة، وتُمسكها بأسنانها من طرف وأُمسك الطرف الآخر بأسناني، ويسحب كلٌّ منَّا في اتجاهه فتنشطر إلى قطعتين، ونضحك.. كنتُ أجد في حركاتها متعةً، ولكني كنت أشعر حيالها وهي بهذا اللباس المحتشم بأنني كالمُكبَّل لا أجرؤ على لمسها، أكتفي بأن أضع ذراعي على خصرها وأُطوِّقها ونسير بعض خطوات تحت الأشجار قُدَّام مدرج الكلية حيث الطلبة والطالبات يتجمَّعون تحت أقواس هذه العمارة الكلونيالية القديمة التي حُوِّلت إلى كلية بعد أن كانت ثُكْنة عسكرية قدَّمَتها وزارة الدفاع الوطني هديةً لوزارة التعليم العالي لتُحوِّلها إلى جامعة، ثم شيئًا فشيئًا بدأنا لا نفترق؛ في المدرج نجلس جنبًا إلى جنب، هي على اليمين وياسر الفلسطيني على اليسار، لا تتردَّد في أن تمُدَّ رجلها لتلاعب قدمي من تحت الطاولة، تكتب لي عبارة غزل على طرف كراستي أو كراستها، ترسم لي قلبًا أو سمكةً أو وردةً أو عينَيِ امرأةٍ جميلةٍ، لم تكن تُحسِن الرسم لكنها كانت تتقن الرماية، كنتُ أتابع حركاتِها وهي غائبةٌ تمامًا عن المحاضرة غارقةٌ في حضوري، أنا أيضًا كنت غائبًا عن العالم من حولنا، كنا بمجرد مغادرة المدرج نبتعد قليلاً، نختفي تحت النخيل، نجلس، تُخرج حبة علكة من بين نهدَيْها، تنزِع عنها غلافها الورقي، تضع طرفها بين أسنانها، أعَضُّ أنا على الطرف الثاني، نسحبُ، يحظى كلٌّ منَّا بجزء من الغنيمة.. في مثل هذه اللحظات كنتُ أرغب في تقبيلها، لكني كنت أتردَّد؟؟ لباسها الديني لعنة، سدَّ بيني وبين السعير في داخلي.. تُخرج دفترها وتبدأ في قراءة أشعارها لي: قصائد في فلسطين، وأخرى في الحب، وفي القُبَل، وفي الحُلم، وفي الأرَق، وفي السرير الفارغ، وفي الليل الطويل والانتظار...

قصائد فلسطين تُكبّلني..

أذكر مساء ذلك اليوم، في خلوتنا تحت أشجار النخيل، ونحن نتقاسم علكةً على طريقتنا الخاصة، اقتربت الشِّفاه، والأنفاس، وتصاعدت دقات القلبين، تجرّأتُ وقبَّلتُها، كانت المرةَ الأولى، وجدتُها مستعدةً، متجاوبةً، حارّةً، جمرةً، كانت تحتضنني وتصرخ، تُقبِّلني هائجةً كنَمِرَة، آخذها وألاعب نهدَيْها فتستسلم لي ذائبة كقطعة زبدة فوق قطعة خبزٍ ساخنٍ أُخْرِج على التوّ من فرن.. بعد لحظات انتبهنا إلى ما حولنا فوجدنا المكان وقد أصبح خاليًا إلا منَّا، وأن جميع الطلاب قد غادروه، يقترب منَّا عمي الياجوري الحارس ليراقب قاعات الدروس والمدرجات ويطفئ الأنوار.

بإحساس غريب افترقنا، وفي اليوم التالي كنتُ جالسًا كعادتي على مقعدٍ حَجَرِيٍّ وسطَ الحديقة المقابلة للكلية، أنتظرُها ولا أنتظرها؛ قبلةُ البارحة زلزلتني، على رؤوس قدميها باغتتني من

الخلف وأغمضَتْ عينَيَّ بكفَّيْها، أدركتُ على الفور أنها هي، ميَّزْتُها من عطرها البسيط الذي فيه أثر للخزامى، مُبقيةً كفَّيْها على عينَيّ، قالت لي: "أنا اليوم كما تريدني وكما ترغب"، وحين حرَّرَت عينَيّ التفتُّ إليها، وإذا هي، ولأول مرة، تتنازل عن ارتداء جلابتها المغربية الطويلة الوردية المخططة بالطول لتستبدلها بسروال جينز بسحاب على الجنب.. كانت جميلةً، مُشهِّية، بجسد مثير، وقد بدت كطفلة مراهقة، ضاحكة، منطلقة، فتاة لا تتجاوز الأربعةَ عشَرَ عامًا، قبَّلتُها على وجنتَيْها ثلاثَ قبلات ساخنة، ثم تسلَّلْنا بين الأشجار، فاختفينا عن عيون الطلبة، عانقتُها وغرقنا في قبلةٍ طويلةٍ؛ شَعَرتُ بأنها خطت خطوةً خارج الإطار الديني، بدأتْ مسار تحرُّرِها من أعراف مدينتها القَروية الصغيرة التي تحاصرها، تخنقها، وشعرتُ بها قريبةً مني أكثر، وبدأتُ أفكِّر في وجودنا المشترك، ولم تطُلِ الأيام بعلاقتنا حتى بدأتُ أزورها في غرفتها بالحي الجامعي؛ فالأحياء الجامعية مختلطة، وكثيرٌ من الطلاب كانوا يعيشون مع رفيقاتهم في غرف مشتركة، بين الفينة والأخرى، كنا ننام على سرير واحد عريض، أنام في حضنها كطفل مُدلَّل، كان نهداها عُشًّا دافئًا لي، غزالة حُر بن يقظان، حين تستحمّ تدخل السرير عاريةً تمامًا، تُثيرني رائحة الصابون على جسدها المصبوب من شهوة، وتطلب مني أن أمصّ لها النهدين، كانت تصرخ من شدة المتعة، وكنت مثلها حين أقف على قمة الشبق أصرخ.. كانت تحب أن أمُصّ لها النهدَيْن. أنا الذي يفقه ذلك، فأنا حُر بن يقظان.

النساء في الليل لسنَ كما هُنَّ في النهار، كائنات أُخريات، مختلفات تمامًا، لهن أجنحة ولهن سماوات، تتحول المرأة العاشقة في الليل إلى كوكب حارق، نيزك يحرق جسد العاشق دون أن يؤذيه، يشتعل كي يزهر العالم من حوله جمالاً ورغبةً ودهشةً.. أصابع المرأة العاشقة في الليل تتحوَّل إلى شمع يضيء الظلمة في عينَيِ العاشق الذي قد يَتِيه منه الطريق نورًا لعاشقٍ عابرٍ لطريق.. على قمة الشبق تتحوَّل أنفاسها الليلية المتقاطعة المتقطِّعة إلى هواء نادر مُعطَّر كأنما يخرج من بابٍ من أبواب الجنة تُركَ مفتوحًا سهوًا من قِبل الحُرَّاس الربانيِّين.. صوت المرأة في الليل يتحوَّل إلى نَغَمٍ أسطوريّ يسري في العروق فيفتح المغاليق.. ريق المرأة في الساعة الأولى من الليل وحتى الثالثة صباحًا يتحول إلى نبيذ مُعتَّق لا مثيلَ له.

ليلاً، تتحوَّل المرأة إلى فصلٍ خامسٍ تُبدعه الطبيعة لمن يفقه قراءة نجوم الجسد، وقوس قزح الأنفاس، وأزرق السماء على الوسادة، وغيم ناعم على جبهةٍ عليها نور.

ذات صباح قبَّلتها على فمها، شربنا قهوةً سوداءَ دون حديث، كنا صامتَيْن، القهوة بدون سكر تُنعشني، كانت كالعادة تلعب في شعري بصمت، لكن مع ذلك أدركتُ أنَّ الطريق الذي بدأناه معًا قبل شهور قد وصل إلى نهايته، لماذا؟ لستُ أدري.. ربما كنتُ أبحث فيها عن صورة لأمي سلوانة المتدفقة حياةً من رنين خلخالها إلى لسانها السليط، فلم تكن كذلك.. لم تكن غزالة حر بن يقظان، نظرت إليها، أدركتْ أن شيئًا ما يدور في خاطري، كانت حزينةً، أنا أيضًا كنت حزينًا، عادت إلى السرير لتنام، تمدَّدَت شبه عارية، فتَّحَتْ عينَيْها في سقف الغرفة، شَعَرْت بها حُطامًا، مُحطَّمة، قلتُ بيني وبين نفسي: "أغادرها في هذه المحطة المبكرة قبل أن يطول السفر المشترك بنا ويبدأ الكذب والنفاق بيننا"، شربتُ الرشفة الأخيرة من قاع فنجان القهوة، ثم وضعتُ نسختي الخاصة من مِفتاح غُرفتها على الطاولة الصغيرة، نظرتُ إلى بعض صورنا الملصقة على الجدران، وأعدتُ قراءة بعض أشعارها المكتوبة بقلم عريض على أوراقٍ مُلصَقة بشكل فوضوي جميل على الباب وأعلى رأسها المائل قليلاً على المخدة الطويلة وسالفها المُبعثَر فوق الإزار الوردي.. حين سحبتُ الباب خلفي، وخطوتُ خطوةً في الرُّوَاق؛ شَعَرتُ بأنني أذهب إلى فصلٍ آخر من حياة أخرى، لم أكن نادمًا، ولكنِّي كنتُ حزينًا.. يا إلهي!!.

لماذا يغادر العاشق امرأةً؟ ربما لأنه يُحبُّها؟ ربما لأنها لم تعرف كيف تُحبُّه؟ ربما لأنهما لا يحلُمان كلَّ ليلة نفس الحُلم؟

غادرتُها، وفي مساء اليوم التالي كنتُ في سرير الغزالتين، كنتُ حُرّ بن يقظان أمام أربعة نهود جامحة. كنت في الغابة!!

12

شيئًا فشيئًا، وبتأثيرٍ من صديقي الفلسطيني بدأتُ أنا الآخر أشرب بين الحين والآخر بعض كؤوس من البيرة الوطنية الرخيصة، وأُحضر معي بين الحين والآخر قِنِّينَة نبيذٍ أشتريها من محلات الأروقة الوطنية.. أنا لا أُدخِّن، صديقي الفلسطيني ياسر البرغوثي معتاد على شرب الويسكي، يُدخِّن كثيرًا، لا يدخن إلا السجائر الأمريكية الفاخرة، من نوع مارلبورو أو وينستون، سجائر كانت في عيوننا رمزًا من رموز الإمبريالية والرأسمالية التي تسببت في ضياع فلسطين.. وفي كثيرٍ من الكوارث التي تعيشها الدول العربية والمغاربية والإفريقية، السيجارة الأمريكية بين شفتَيْ ياسر البرغوثي أحرقت ما تبقَّى من صورة الملاك الفلسطيني التي تسكن رؤوسنا، وبدأَتْ بعض المقارنات المُقلِقة تزعجني: في الوقت الذي يستهلك فيه الطلاب الجزائريون التبغ الوطني العادي -حتى لا أقول الرديء- كسجائر أفراز أو صافي أو إلهام أو الهقار... كنتَ أستغرب منه هذا التصرف، فكيف لفلسطينيٍّ يحمل في قلبه القدس، ويحمل أشعار محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد، يُدخِّن سجائرَ أمريكيةً!! من أين يجيء بالمال ليشتري مثل هذا النوع الغالي من السجائر؟! كانت قيمةُ مِنْحَتِنا الدراسية مائة وستين دينارًا شهريًّا!!

هذه الأسئلة أقلقَتْنِي، هزَّت قناعاتي، وضعتني أمام أسئلة جديدة وحَرِجة.

جرحح يفتح فمه واسعا..

أشربُ كأسًا أخرى، وأُدقِّق النظر في صورةٍ للقدس مُعلَّقةٍ على جدار الغرفة.

ومع انقضاء السنة الجامعية الأولى، وانطلاق السنة الثانية جمعَتْنا ثانيةً الغرفة نفسُها G76.. لقد تغيرَتْ في صديقي ياسر الفلسطيني أشياء كثيرة، اختفى الحديث النضالي ضد الرئيس أنور

السادات وضد مناحين بيغين والرئيس كارتر، ولم يعُدْ يقرأ لنا قصائد درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد؛ لم تَعُد تشده أغاني الشيخ إمام ولا مارسيل خليفة ولا خالد الهبر... لقد تغيَّر ياسر البرغوثي كليةً.

تغيرتُ أنا كذلك.. شيء واحد لم يتزحزح فيَّ، هو صورة الغزالتين جنينة وجميلة على غابةٍ من سرير، صورة عالقة في القلب والذاكرة والجسد، كنت حينما لا أستطيع زيارتهما في عطلة نهاية الأسبوع أهاتفهما بلهفة، أرتجف وأنا أسمع صوتَيْهما، لا أُفرِّق بين صوت الأولى والثانية.

أنهي المكالمة وأصرخ: آه يا ربك يا حُرّ بن يقظان!!

ما عاد ياسر البرغوثي يدخل غرفة الحيّ الجامعيّ إلا مع الساعات الأولى لطلوع الفجر، يقضي سهراته في بعض الملاهي وسط المدينة، وفي الصباح أغادر أنا الغرفة على رؤوس أصابعي لألتحق بالمحاضرات، أتركه لا يزال نائمًا، أحاول قَدْر الإمكان ألا أُزعجه، وحين أعود مع نهاية الدوام ما بين الخامسة والسادسة مساءً أجده يستعدّ للخروج في اتجاه المدينة وقد استحمَّ وتعطَّر ولبِسَ ما يُثير من الألوان، كالورديّ والأحمر والزهري...

لستُ أدري كيف وجدتُ نفسي مأخوذًا بشخصية الزعيم ماوتسي تونغ، وبتجربة الصين الشعبية الشيوعية، الكتاب الأحمر الصغير لماو تسي تونغ باللغة الفرنسية لا يفارق محفظتي، أقرأ بعضَ فصولِه كلَّ يوم بإيمان وخشوع كما يقرأ المؤمن كتاب الله من توراة أو إنجيل أو قرآن، وحين سقطتُ صدفةً على ديوانٍ شعريٍّ للزعيم حفظتُ بعضًا من أشعاره التي كنتُ أجدها عظيمةً في تمجيدها للفلاحين والعمَّال، حفظتُ بعضها بالفرنسية وبالصينية أيضًا، وكنتُ لا أتردد في ذِكْر بعض مقولاته في الفن والأدب وأنا أُحرِّر بعض عروض في التحليل النفسي، وبعد ذلك أصبحتُ مداومًا على قراءة تلك المجلات الصينية التي تصل الأكشاكَ بصورةٍ منتظمةٍ وتُبَاع بأسعارٍ زهيدة، مجلات بصُوَر مثيرة بألوانها وبجمال مناظرها الطبيعية الخلابة.

كنتُ مُتيقِّنًا أن العالم الجديد قادم من الصين اقتصاديًّا وعلميًّا وتكنولوجيًّا وعدالةً اجتماعيةً، لم يكن الاتحاد السوفيتي ليُثِيرني باستثناء تجاربه الفضائية، كنت أتابع بكثير من الانحياز أخبار البرامج الاستكشافية الفضائية الأمريكية والسوفيتية، في البحوث الفضائية كنت سوفيتيًّا، كانت

الصين هي كل شيء بالنسبة لي، وزعيمها ماو تسي تونغ هو نبـي الإنسانية الجديد بأفكاره وعدالته وحكمته.

كان الزملاء -من الطلبة اليساريِّين المُنضوِين تحت صفوف الحزب الشيوعي أو ما يُسمَّى "حزب الطليعة الاشتراكية" السري التابع لفلك الحزب الشيوعي السوفيتي، والذي كان يدعم بشكلٍ من الأشكال النظام القائم- ينظرون إليَّ بنوعٍ من الكراهية والعداوة حين أتحدث عن ماو تسي تونغ أو عن إنجازات الشعب الصيني.

مراتٍ، كنتُ أشرب كأس نبيذ أو اثنتين، أطلُّ من نافذة غرفتي وأتخيَّلُني في هيئة الرئيس ماتسي تونغ، أتخيَّل مليارًا أو أكثر من البشر ينظرون إليَّ، من بينهم كنتُ أُميِّز الغزالتين جنينة وجميلة، ثم أبدأ في إلقاء خطبة طويلة عن ثورة الفلاحين وعن العدالة الاجتماعية وضرورة قهر الفقر والانتصار التاريخي الحتمي على الإمبريالية الأمريكية.

كانت جنينة وجميلة تبتسمان لي، وكنتُ سعيدًا.

آخر كأس وأنام..

أحاول أن أقرأ من رواية "نجران تحت الصفر" ليحيى يخلف، هي من مجموعة الكتب التي أحضَرَها معه ياسر الفلسطيني، أقرأ صفحة أو صفحتين وأشعر بأنني لست كائنا أدبيا.

بدأَتْ لقاءاتي بياسر البرغوثي تتباعد، وعلاقتي به تجفّ عروقها يومًا بعد آخر، يحدث أن أصادفه في مقهًى من مقاهي المدينة أو في نادي الجامعة فأجده محاطًا بمجموعة من الطالبات، يُضاحك هذه ويعانق الأخرى، يسلم عليَّ من بعيد، وأحييه ببرودة، ومع كل عطلة شتاء أو ربيع أو عطلة أعياد رأس السنة أو الأعياد الدينية كان يسافر إلى الخارج، تارةً إلى فرنسا وأخرى إلى إنجلترا أو المغرب أو إسبانيا، وفي كل سفر كان يعود مُحمَّلاً بالهدايا: من عطرٍ باريسي، وأدوات الزينة، وخرطوشات السجائر الأمريكية يُوزِّعها على الطالبات.

أصبح نجمًا في أوساط الطالبات، كل واحدة تريده لها، تحلُم أن يكون لها منه طفلٌ، ذرية فلسطينية، مشروعُ مناضلٍ ضدَّ إسرائيل المُغتصِبة، أن يكون لها منه صلاح الدين الجديد.

هذا المساء كنت وحيدًا بالغرفة، لم يعُدْ ياسر البرغوثي يعود إليها إلا نادرًا، لقد اختفى من الحي الجامعي أو كاد، مع أن بعض حاجيّاته من ألبسة وأحذية وبعض المجلات والكتب لا تزال محفوظةً في خزانة الغرفة، يقال إنه استأجر شقةً وسط المدينة كي يسهُل عليه استقبال عشيقاته والمعجبات في أي وقت يشاء.. أُواجه الكتاب الأحمر الصغير للزعيم ماو تسي تونغ وأتساءل: أين الفلسطيني؟ أين ذاك الملاك الذي كان يجلس بجانبـي في أول يوم، في أول محاضرة من السنة الجامعية الأولى؟ وفجأةً شَعَرْتُ بأن الصورة تآكلت في قلبـي وفي عقلي.

شربتُ كأس نبيذٍ من قِنّينَة Cuvée du Président، ثم كأسًا ثانيةً، وضعتُ القنينة أمامي فوق الطاولة.. صورة القدس بمسجدها الأقصى أمامي مُعلَّقة على الجدار في مكانها، ياسر الفلسطيني ليس في مكانه.. وبدأتُ في تفحص الإتيكيت على القنينة التي تُمثِّل جرّة بربرية متناسقة ذكَّرَتني بالشاعر الأمازيغي الغجري الشيخ السي امْحَنْدْ أومُحَنْدْ.

تذكرتُ الطالبة التي أحببتُها ثم غادرتها ذاك الصباح، واستعدتُ بعض قصائدها الساذجة عن فلسطين والقدس والتي كانت تُصِرّ أن تقرأها عليَّ، وضحكتُ.

أحسستُ بحزن عميق ينخرني، وبإحباطٍ ثوريٍّ يحاصرني، وبحنينٍ إلى أحضان لالة مولاتي وسرير الغزالتين، وشَعَرتُ بريح زمن المراجعة يداهمني، وشيئًا فشيئًا بدأتُ أتخلَّص من رومانسيتي الثورية.

وذات مساء شتائي بارد قليلاً، كان الجو ممطرًا -أُحِبُّ العاصمة تحت المطر-، توقفتْ سيارة شرطة في ساحة الحي الجامعي، الأضواء مطفأة حتى لا تُثير ردَّ فعل الطلاب فيخرجوا في مظاهرة استنكار ضد اقتحام الشرطة حرم المدينة الجامعية.. تسلَّل ثلاثة من رجال الأمن بالزي المدني إلى الجناح الذي به غرفتنا G76، لقد جاؤوا الغرفة دون تردُّد، بعد أن حصلوا من حارس الحي الجامعي الليلي على المعلومات المطلوبة، فهو مَن أدلَّهم على رقم غرفتنا ورقم الجناح الذي نُقيم فيه، بهدوءٍ دقُّوا الباب، وبصوتٍ هادئٍ طلبوا مني السماح لهم بالدخول، وقبل أن أُخلي لهم الطريق كانوا واقفين وسط الغرفة استعدادًا للهجوم، طلبوا مني وثائقي الشخصية والجامعية، بحركة لاإرادية أخفيتُ الكتاب الأحمر لماو تسي تونغ من فوق الطاولة، وضعتُه في الدرج، وسلَّمتُهم وثائقي دون أن أطلب منهم أمرًا، استعرض اثنان من الثلاثة بطاقتَيْهما المهنية أمام عيني، وبعد أن تأكدَا من أنها هي الغرفة التي يقيم بها الفلسطيني ياسر البرغوثي، شرعوا في تفتيش الخزانتين، أخرجوا منهما جميع

أغراضه وكذا أغراضي، فتشوا السريرين وما تحتهما، ولم يتركوا شيئًا إلا قلبوه.. لم يعثروا على شيءٍ ذي أهمية، جمعوا في كيس نيلون أزرق كبير بعضَ وثائق الطالب الفلسطيني وأخذوها معهم، لم أُميّز طبيعة تلك الوثائق، أمضيتُ على محضرٍ مكتوبٍ بخطٍّ فرنسيٍّ مدرسيٍّ مائل، اعتذرَ أحدهم على الوضعية التي تركوا لي الغرفة عليها، ثم انسحبوا بكثيرٍ من الهدوء والاحترام.

بحثتُ عن الكتاب الأحمر لماو تسي تونغ لم أجده، لقد صادروه دون أن أنتبه، ضمن الوثائق التي حملوها معهم.

من يومها لم يظهر ياسر البرغوثي، لا في الجامعة ولا في الحي ولا في المدينة، اختفى نهائيًّا تاركًا بعضَ أغراضه في الغرفة، بعضَ ألبسةٍ وزوجَ حذاءٍ إيطاليٍّ وبيجاما وقمصانًا مُلوّنة وقِنّينَاتِ عطرٍ، ونصفَ خرطوشة سجائر، وكراريس المحاضرات، وبعض الكتب من بينها الأعمال الكاملة لمحمود درويش وسميح القاسم ونزار قباني الصادرة عن منشورات دار العودة.

بعد ثلاثة أشهر أو يزيد على اختفاء ياسر البرغوثي، ياسر عرفات كما كنا نسميه، وانقضاء العطلة الربيعية، أخبرتني -وبالصدفة- المراكشية التي كنت على علاقة بها والتي لم تعد تكتب شعرا لفلسطين، بأن ياسر غادر الجزائر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأنه سجل بجامعة لوس أنجلس ويشتغل مع ابن عمه في مطعم لبناني.. قالت المراكشية التي تغيرت كثيرا، فقد فقدت كل ما كان فيها من عفوية وعمق، بنوعٍ من السخرية مُعلّقةً على سفره وغيابه:

"من يا ترى سيُهدينا عُلَب سجائر المارلبورو وقَنانِيّ الويسكي جوني والكير أسود والعطر الفرنسي الممتاز؟".

من يومها تغيَّرَت صورة الفلسطيني في خيالي بشكل نهائي، ونزل من حالة الملاك إلى واقع الإنسان، من المُنزَّه إلى المُخطِئ، مثلنا جميعًا؛ فالخطيئة قَدَر الإنسان.. في نهاية السنة الجامعية جمعتُ الكتب التي تركها ياسر البرغوثي في الغرفة وسلمتُها للمكتبة الجامعية.

قلتُ في نفسي وأنا أُسلِّم الكتب إلى المكتبة: "علينا أن نُحرِّر فِلَسطين من وهمِنَا أولاً قبل التفكير في تحريرها من مغتصبيها".

13

يحلو لي نهايةَ الأسبوع، بين الحين والآخر، أن أعود إلى بيت سيدي مولاي، للسؤال عن أحوال الأسرة، والمبيت في غرفتي التي احتفظَتْ بها لالة مولاتي كما هي، بسريرها وفراشها، وبعض الكتب التي تركتُها فوق المكتب، وبعض الألبسة التي لم أعُدْ بحاجةٍ إليها.

أراقبُ لالة مولاتي، فأجدُها وقد تجاوزت الخمسين في كامل جمرها وتمرها وثمارها، يعجبني شكل ثديَيْها المنفوشَيْن النائمَيْن قليلاً على صدرها بتعبٍ جميل، لست أدري لماذا أراقبها وأنتظر أن تسرع نحوي أو إلى سريري كي تُضمَّنِي إليها وتعصِرني بين فخذَيْها.

أنظر إليها وأتساءل: أين سلوانة؟

وأستعيد.

حركتُ لالة مولاتي المتكررة ذَهابًا وإيابًا ما بين الصالون والمطبخ والرُّوَاق غير طبيعية، تبدو وكأنها قلقة؛ من هنا أسمع وقع خطواتها.

يوم آخر، ثلاثاء آخر..

انتظرَتْني كي أغادر سريري، وحين تأخرتُ كثيرًا صعدَتْ إلى الغرفة كي توقظني، جنينة وجميلة غادرتَا إلى المدرسة العليا للأساتذة، الهواري ينام على الأريكة في الصالون بعد أن عاد مع أول خيوط ضوء الفجر بعد ليلة من التدريبات مع فرقته الموسيقية، فرقة "النخلة الزرقاء".. أشعر بكسل، قالت لي وهي تدفع باب الغرفة وتفتح النافذة على ضوء قوي وسماء زرقاء:

"لقد سافر سيدي مولاي على عَجَل هذا الصباح إلى مدينة عنابة، الموعد طارئ ومهنيّ ولا يتطلَّب التأجيل، لم يتمكن من إخبار الشيخ الأزهري عن سفره المفاجئ، ولم يكن له فسحة من الوقت لإخباره بإلغاء اللقاء الأسبوعي العادي...".

شَعَرْتُ بشيءٍ يتحرك في قلبـي كخنجر الغَيْرة، لقد تغيَّر صوت لالة مولاتي عند ذِكْر اسم "الأزهري".

كلمة "الأزهري" على لسانها لها مدلول آخر غير الأزهري!!!

كنتُ أقرأ ما يدور في رأسها، ما تقوله لنفسها:

"... عليَّ أنا سيدة البيت الأولى أن أستعد لاستقباله، أن أعتذر له فسيدي مولاي سافر دون ترتيب مسبق، أحضر الجُمَل التي أقولها له، أُرتّبها في رأسي وأُكرِّرها بصوتٍ عالٍ وأنا قُدَّام المرآة الكبيرة: "هو سفر آخر لحظة.. تفضَّل يا شيخ، البيت بيتك"؟.

طَوال النهار، ومنذ أن غادَرَ مولاي البيت صباحًا، وهي تُحِسّ بارتباكٍ، ورجفةٍ في ركبتَيْها، وحرارةٍ عاليةٍ في جسدها، واحمرارٍ بادٍ على وجنتَيْها، وقبل ساعتين من موعد حضوره كانت قبالة الباب، تارةً أمام الباب وأخرى في الحمّام أمام المرآة، وطورًا خلف ستارة الشباك في الطابق الأول تراقب المارّة في الشارع، تراقب حركاتِهم بدقة، رؤية قنّاصة محترفة تنتظر فريستها التي قد تظهر وتختفي في رَمْشَة عين.

هي تراقبه، وأنا أراقب بدقة ارتباكها الجميل، ارتباك طفلةٍ في عمر العشرين.

أنا الآخر أُحِسّ بارتباكٍ ورجفةٍ في ركبتَيَّ وأنا أشمّ عِطرها يصعدُ درجات السلم ويملأ الرُّوَاق، ويصل حتى سريري الذي أستعدُّ أخيرًا لمغادرته.

من هنا أراقب لالة مولاتي:

الساعة تشير إلى الثالثة إلا ربعًا، بقيَتْ خمس عشرة دقيقة على الموعد، تراقب الساعة الجدارية التي تتنفس ببطء في الصالون كأنما تعاني من ضيق في التنفس، وأراقب عقارب ساعتي في مِعصمي، أشعر أن عقاربها مُتوثِّبةٌ تجري بسرعة إلى الموعد.. حين دقَّ الباب كانت الساعة

الثالثة إلا ست دقائق، بالتمام والكمال، هي دقاته التي عادةً ما تكون متبوعةً برفع البسملة والتكبير والتهليل.. وهي تهمّ بفتح الباب وقد تعطَّرتْ لمثل هذه اللحظة ثلاثَ مراتٍ منذ الصباح أو أكثرَ، سبقَهَا إلى الباب ابنها الهواري الذي استيقظ فجأة وهو الذي كان يغط في نوم عميق على أريكة الصالون، تراجعتْ قليلاً، مفتعلةً السؤال: "مَن الطارق.. مَن على الباب؟"، ثم سمعَت الهواري يُحدِّث الأزهري وهو واقف على العتبة قائلاً: "لقد سافر أبـي إلى مدينة عنابة، وهو يعتذر لأنه لم يتمكَّن من إخبارك؛ فعفوًا على الإزعاج..".

وقفَتْ لالة مولاتي في البهو كقصبةٍ في الريح، ترتجف وترتجف، حاولَتْ أن تتقدم لكن اتجاه الريح دفع بها إلى الجهة الأخرى، تمنَّتْ أن تراه، أن يراها، أن يُطلق سهام عينيه الحامية على جسدها، أن يتشمَّم عِطرها، أن يمسح حباتِ عرَقٍ من على جبينه وهو يرفع نظره إلى صدرها.. لم يترك لها ابنها الهواري الفرصة كي تتقدم إلى الباب كي تطلّ على الطارق، ولم يترك له، في المقابل، فرصة الأخذ والردّ معه في الكلام، بسرعةٍ صفق الهواري الباب، لم تطُلْ المحاورة بينهما، وعاد مسرعًا للتمدُّد على الأريكة العريضة أمام شاشة التلفزيون لمتابعة مباراة كرة القدم ضِمْن تصفيات كأس العالم.

حين ردَّ الباب، شعرت بقلبها يرتجف، وبدوخةٍ في رأسها.

كنتُ أنتظر سماع خطواتها على درجات السُّلَّم مُسرعةً نحو غرفتي.. رعشةٌ بـي، ارتباكٌ يهزُّ جسدي.

دفعَتِ الباب وارتمَتْ عليَّ وأنا نصفُ عارٍ في السرير، احتضنتني باكية.

شعرَتْ برأسي فوق ثدييْها، وطبعت قبلةً على شفتَيّ، إنها الأولى.

خفتُ من أن يقع الذي قد يقع، انسحبتُ من تحت الإزار، ثم نزلتُ السُّلَّم وتركتُها ترتجف وتبكي.

14

الصيف يُغرق مدينة الجزائر العاصمة في حرارة ورطوبة قاتلتَيْن، جوٌّ ثقيل وخانق، سنتي الجامعية الأولى مرت بسرعة وها هي الثانية تجري، سمحَتْ لي ولأول مرّة أن أستقلّ بحياتي بعيدًا عن العائلة، وفتحَتْ لي آفاق علاقات صداقة جديدة، وخاصةً التعرف على ياسر البرغوثي الفلسطيني وعلى الشاعرة التي تكتب الحر والمقفىّ.. مع أنني اخترتُ الحياة في غرفةٍ بالمدينة الجامعية إلا أنني كنتُ أُفضّل قضاء عطلة نهاية الأسبوع في بيت سيدي مولاي، كنت أشتاق إلى نظرات لالة مولاتي وهي تحتضنني أو تعصِرني بين فخذَيْها، وأحنّ إلى لمسات نهود جنينة وجميلة، أُحبّ ابن طفيل والغزالة ورضيعها!! كنا نسهر حتى مطلع الفجر أحدثهما عن أسطورة الفلسطيني القادم من غزة..

للالة البتول أنفٌ لا يُخطئ الشمّ، عطرٌ مخيف كغاز السارين يسري في البيت، أمام ذلك كان عليها -بوصفها جنرال هذا البيت- أن تتخذ إجراءً احترازيًّا لإنقاذ البقية من الخراب الدَّاهم..

هذا الصباح، فاجأتني وأنا في سريرهما، أنهش صدرَيْهما كما في قصة حي بن يقظان، ثلاثتنا فوق غيمة كنا سابحين، حمحماتٌ ولهفٌ وأنفاسٌ متقطِّعة، لم تقلْ شيئًا، شعَرْتُ كأن تيار كهرباء الغيرة قد صعَقَها، أدركتُ على الفور أن الأفعى تنام وتصحو في الجيب، لم تصرخ ولم تُخبر سيدي مولاي بما شاهدَتْه، بلعتُ جمر الفضيحة وصعقة الغيرة وصمتَتْ في زاويتها كجنرال يستعدّ للردّ المناسب في الوقت المناسب في معركة يقودها مؤمنًا بانتصاره.

وكأنما السماء كانت في الاستماع إلى شكواها، فلم تتأخر للاستجابة؛ إذ -على هامش جلسة من جلسات الترتيل والقراءة- طلَبَ الأزهري من سيدي مولاي يد ابنته "واحدة منهما!!" (هكذا عبّر

الأزهري) لأحد أبناء صديق له، وهو من الشباب الوَرِعين المؤمنين المناضلين في سبيل الله بالعلم والوعظ وغدًا بالسلاح، وهو رجلٌ عالمٌ عاد إلى العاصمة التي غادرها منذ الأيام الأولى لانطلاق حرب المجاهدين على الشيوعيين السوفيت في أفغانستان، يقيم ما بين السعودية وباريس، يصلي الظهر في الحرم المكي ويصلي العشاء في سان دوني بضواحي باريس، حيث يملك شقةً فاخرةً بباريس المقاطعة الخامسة عشرة، ويُشرف على ثلاثة مساجد بفرنسا: واحد في باريس، وثانٍ بليون وثالث بليل.. عاد يريد الزواج ويساهم في تنظيم الشباب المتعطش للإسلام في الجزائر بلاد الإسلام، وهو الذي تعددت أسفاره في آسيا الإسلامية، وإعجابه بالتجربة الإندونيسية في الاقتصاد، وبالمجاهدين في أفغانستان...

لا يهم إن كانت هذه أو تلك، المهم التعجيل بإخراج واحدة منهما من الجُحْر.. وتمت مراسيم الخِطبة بطريقة طبيعية، ورُفعت الزغاريد، وقرأ الأزهري بعض آيات الذكر الحكيم، ولم يتحدث الشاب عن أيهما يريد، فجنينة نسخة من جميلة، مع ذلك كان لا بد من إجراءات إدارية لتسجيل عقد الزواج، وكان أن تمَّ تسجيل القِران باسم جنينة، لا لشيء إلاَّ لأن القدر أراد أن تكون أوراقها جاهزة، شهادة الميلاد تحت اليد مباشرة دون بحث أو تنقيب أو تنقُّل إلى مصلحة الحالة المدنية لطلب نسخة منها، وفي ظرف شهر تمت التحضيرات كلها، وجاء يوم الزفاف، وأخيرًا أخبرَتْ لالة البتول ابنتها جنينة بعد أن تأكَّد لها ذلك من ورقة العقد مباشرةً، بأنها هي المقصودة من الزواج.. نظرت هذه الأخيرة إلى أختها الواقفة أمامها، وصاحت في أمها: "وهل سأترك جميلة وحدَها؟".

في تلك الليلة كان الاتفاق على أن تنتقل جميلة مع أختها إلى بيتها الزوجي، ووعدت جنينة أختها بأنها ستُقنع زوجها بضرورة أن تعيش معهما؛ لأن في ذلك سعادتها وسعادتهما.. وهو ما حدث بالفعل؛ إذ قبِلَ الزوج بإمكانية العيش، ثلاثتهم معًا.

لكن حين جاء يوم العُرس، وأُخرجت العروس، تحت الزغاريد وكلاكصونات السيارات الجديدة والنظيفة والتي زُيِّنت بأكاليل الورد، وغابت جنينة في الزحام، وجدت جميلة نفسها في ركنٍ بارد.

فرغ البيت، وأضحت الغرفة التي كانت تتقاسمها مع أختها غابةً مخيفةً، مُوحشةً، وضعت غطاءً على الأرض وتمدَّدتْ، ما كانت لتستطيع النوم على سرير تقاسمَتْه مع أختها مدة عشرين سنة تقريبًا، كانت تنتظر أن يتسلل بين الفينة والأخرى شبح حُرّ بن يقظان، لكنه لم يأتِ.

وفي اليوم التالي رفضَتِ النزول لتناول الفطور، وقاطعَتْ الجميع، وأغلقَتْ على نفسها، ودخلت في حالة هستيرية غريبة.

واختفت عن الأنظار، ولم يعُدْ يُسمَع في البيت سوى صوت الأزهري يُرتِّل القرآن مُقلدًا الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، متبوعًا بصوت مولاي كريم الذي ختم كتاب الله للمرة الثانية.

انهارت الحالة الصحية لجميلة، وباتت لا تنام، تَهذي ليلاً ونهارًا، وقد حاول الشيخ الأزهري أن يعالجها بالرقية الشرعية، ولكن لا شيءَ نفَعَ، كانت تقوم مع مطلع الفجر، تُشْرِع نافذة الغرفة وتصرخ عاليًا: "أَرْجِعوا إليّ جنينة، أَرْجِعوا إليّ أختي..".

وكان لا بد مِن عَرْضها على طبيبٍ نفسانيّ، وهو ما تطلَّب نقْلَها إلى مستشفى الأمراض العصبية، حيث احتفظ بها نزيلةً هناك، وكانت تُعانِق كل مَن تَلْقَاها من النزيلات صارخةً فيها: "هل رأيتِ جنينة، أعيدوا إليَّ أختي..".

لم يدُمْ زواج جنينة سوى ثلاثة أشهر تقريبًا، ومع بداية الموسم الدراسي -حيث مِن المفروض أن تلتحق بالمتوسطة التي عُيِّنَت فيها، حتى أُصيبت هي الأخرى بكآبة؛ مما جَعَلها ترفض الذهاب إلى سرير زوجها، وكانت تقوم من نومها والعرق يتصبَّب من جسدها صارخةً: "أخلُوا سبيلَها، إنها جميلة.. إنها نصفي.. إنها أنا..".

وتأخرَتْ عن الالتحاق بالمتوسطة، وكاتبَتْها الأكاديمية، وساءت حالتها النفسية أكثرَ فأكثرَ؛ مما اضطر الإدارة إلى تعويضها بأستاذ مُستخلَف، كانت تظلُّ النهار كله واقفةً عند باب شقتها في الطابق الثالث من العمارة التي تسكنها وسط المدينة، تنتظر عودة أختها.

وكان على الزوج أن يُعِيد جنينة إلى أهلها، وكما فعل سيدي مولاي مع جميلة فقد اضطر إلى نَقْلها هي الأخرى إلى مستشفى الأمراض العصبية نفسِه.

ذاك الصباح، صباحها الأول في المستشفى، وجنينة تُقاد إلى جلسة المعالجة بالكدمات الكهربائية، تقاطعَتْ في الرواق مع أختها جميلة، نظرت الأولى إلى الثانية وصرختَا في الوقت نفسه: "أعيدوا إليَّ أختي أيها الأشرار.. أعيدوا إليَّ جميلة.. أعيدوا إليَّ جنينة.."، وذهبت كل واحدة في الاتجاه المعاكس.

14

وحيدًا في الغرفة..

أنا حُرّ بن يقظان بدون ثدي غزالة.

صببتُ لي كأسًا..

بـي حزن عميق غير مبرر..

طارت الغزالتان..

مُمدَّدًا على السرير، قلتُ في نفسي وأنا أفكِّر في اختفاء ياسر الفلسطيني: "علينا أن نُحرِّر فلسطين من أوهامنا كي تتحرَّر بعد ذلك من الاستعمار".

صببتُ لي كأسًا أخرى..

بتكاسُلٍ مددتُ يدي إلى صف الكتب والمجلات الموضوعة على طول طرف المكتب مُسندة على الجدار، دون تعيينٍ سحبتُ، سقطت يدي على عددٍ قديمٍ من مجلة "أنفاس" الثقافية الأدبية التي أسَّسها وأدارها الشاعر المغربـي عبد اللطيف اللعبـي، والتي أهداني بعض أعدادها طالب مغربـي مُعارض لنظام المخزن، ينتمي إلى حركة يسارية هي 23 مارس، اسمه الحركي "الأطلسي"، كان نشطًا حاضرًا في جميع النقاشات والندوات التي تُقام في الجامعة، ندوات سياسية وفكرية وأدبية، إضافةً إلى ذلك كان يساهم تحت هذا الاسم المستعار بكتابة مقالات في بعض الجرائد الجزائرية.

مع أنه كان طالبًا بقسم الأدب العربـي، وأنا بقسم علم النفس والتربية، فقد وجدتُ فيه صديقًا ملأَ الفراغ الذي خلَّفه اختفاء ياسر الفلسطيني، تجمعني وإياه بعضُ أفكارٍ كنتُ أقرؤها في الكتاب الأحمر الصغير للزعيم ماو تسي تونغ، هو أيضًا كان يؤمن بأن الصين هي القوة الاقتصادية والتكنولوجية المستقبلية القادمة.

تصفحتُ العدد بصورة متكاسلة وقد هرَبَ النوم من عيني، كنتُ أبحث عن شيء يمكن أن يخرجني من هذا الشعور بالوحدة والقلق، وجدتُ نفسي مشدودًا إلى مقالٍ في العدد عن مسيرة النقابـي والمناضل المغربـي اليهودي أبراهام السرفاتي، الذي يُعَدّ -كما يصفه المقال- أحدَ المناضلين النقابيّين الوطنيِّين المغاربة اليهود البارزين، الذي زجَّ به النظام المغربـي في السجون جنبًا إلى جنبٍ مع الشاعر عبد اللطيف اللعبـي.

كانت الأوساط النقابية وصفوف المعارضة المغربية تطلق على أبراهام السرفاتي لقب "مانديلا المغربـي"، وهو الذي عاش طويلاً في السرية، ولم يُرِدْ مغادرة بلده المغرب، أو أن يتنازل عن مواقفه أو عن مغربيته، ليلقي عليه المخزن القبض عام 1972 فيُسجن ويُعذَّب ويُحكَم عليه بالسجن لمدة سبع عشرة سنة.

كنت أقرأ عن أبراهام السرفاتي اليهودي الوطني المغربـي وأُحدّق في صورة القدس التي تركها ياسر البرغوثي مُعلَّقةً على هذا الجدار الذي يقابلني وهاجر إلى أمريكا باحثا عن جنسية وعن حرية.

أصبُّ كأسًا أخرى وأفكِّر في الأزهري الذي لا يتوقف عن أكل لالة مولاتي بنظره، يأكلها قطعةً قطعةً، بشراسة ذئب جائع.

وفي اليوم التالي وأنا أستعيد صورة الفلسطيني الهارب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، دخلتُ المكتبة الجامعية، طلبتُ كتاب "كتابات السجن عن فلسطين" لأبراهام السرفاتي، وأسرعتُ الخَطْو للعودة إلى غرفتي لقراءته.

أصبُّ لي فنجان قهوة، لا نبيذَ في القِنِّينَة ولا في الخزانة.

أقرأ في الكتاب والعالم يتشكَّل في رأسي من جديد، تفرز الأمور قليلاً قليلاً، يتجلى غيم، وبدأتُ أشعُر بزلزال يشتت أفكاري، انقلابٍ يهُزُّ مبادئي، يشتت قناعاتي، يُعيد ترتيب العالم أمامي وفي داخلي.

أقرأ وأنا أتحرَّر من صورة الفلسطيني المثالي من رأسي، وبدأتْ فلسطين أخرى تنمو في داخلي، ومن كتابات أبراهام السرفاتي إلى "كتابات مريم بان" الشاعرة اليهودية الجزائرية إلى روايات إدموند عمران المليح؛ اكتشفتُ أن العالم له وجهٌ آخر.

وأنا أقرأ كانت صورة ياسر البرغوثي الطالب الفلسطيني تختفي من رأسي، أراه يغرق في زحام الغرب والاستهلاك باحثًا عن جنسية أمريكية وإقامة مريحة بعيدًا عن فوضى البلدان العربية وبعيدًا عن وجع الرأس الذي تُسببه القضية الفلسطينية بين العرب الذين صنعوا منها تجارةً سياسيةً كبيرةً لتلهية شعوبهم عن الحياة ومَنْعهم من المطالبة بالحرية والتعدُّدية؛ فما دامت فلسطين مستعمرةً فكلُّ شيء مُؤجَّل في العالم العربـي، وما دام كل شيء مُؤجَّل في العالم العربـي فإن فلسطين ستظل على حالها: البيضةُ أم الدجاجةُ؟!

بدأ العالم يتشكَّل في رأسي على أُسس جديدة ومغايرة؛ فانهيار صورة الفلسطيني من رأسي لا يعني سقوط القضية الفلسطينية من هواجسي، ولكن وجود هذا الطالب وبهذا الشكل حطَّم مثالية الصورة التي تشكلت في خيالي وخيال جيلي عن القضية الفلسطينية، وهو ما جعلَنِي أُعيد النظر في جُملةٍ من القناعات الذاتية من خلال البحث عن عالم قائم على أساس العدل لا على أساس الدين أو العِرْق.

لشهور طويلة، لم أستطع التخلص من صورة ياسر الفلسطيني الذي ردَمَ شيئًا فيَّ وأحيَا شيئًا آخر، زلزلني، الطالب ياسر الفلسطيني هو مَن دفعني إلى الاهتمام والبحث في تاريخ بعض الوجوه اليهودية المناضلة والوطنية في العالم العربـي وفي الجزائر، والتي ستساعدني على إعادة ترتيب العالم في رأسي، عالم كان لا يتعدَّى وسْع بابه سَمَّ الإبرة.

وبدأت مغامرتي مع قراءة كتب التاريخ والحضارة والأديان المقارنة.

كانت حكاية المناضل اليهودي الجزائري شهيد الثورة الجزائرية فيرنونْدْ إيفْتونْ ناقوسَ وعيٍ آخرَ، وهو الذي حكمَتْ عليه القوات الفرنسية بالإعدام، ونُفِّذَ فيه الحكم بالمِقْصَلة في 11

فبراير 1957، كان أولَ شهيدٍ من مناضلي جبهة التحرير الوطني يتم إعدامه.

وأنا أدقق التفكير في سيرة أبراهام السرفاتي النقابية، واستشهاد فيرْنونْدْ إيفْتونْ لأجل استقلال الجزائر، وأستعيد أحداث وشخصيات روايات إدموند عمران المليح وأشعار مريم بان، بدأ بعض الصدأ الذي يُشبه السراب يتلاشى شيئًا فشيئًا من رأسي.

المدينة الجامعية في سكون، الساعة تجاوزت منتصف الليل بكثير، أشربُ ما تبقَّى في قاع فنجان القهوة وأنام أحلم وكأنِّي مُمدَّد بين الغزالتين في سرير غرفتهما في الطابق الثاني، رائحة الإزار مدهشة.

15

لقد اختفى الهواري، اختفى الزعيم -وهو اللقب الذي كان يحلو لأصدقائه مناداته به-، تبخَّر فجأة من الوجود.

عُدت نهاية الأسبوع كي أطمئنَّ على حال لالة مولاتي التي استقبلتني بنظارةٍ سوداءَ ثقيلةٍ تُخفي عينَيْها وقد ضعُفَ بصرها خلال ثلاثة أيام بشكل فظيع، حتى لم تعُدْ تُميِّز بين الوجوه، كما أنها بدأت تفقد ذاكرتها، كل ذلك من ساعة علمت باختفاء ابنها الهواري المُدلَّل.

كان الهواري ذكيًّا وأنانيًّا في الوقت نفسه، منذ سنته الأولى بالمدرسة الوطنية للإدارة رسَمَ طريقه بدقة، مبكرًا انخرط في الحركة الطلابية، اختار أقوى الحركات وأكثرها قربًا من مركز القرار، كان دائمًا يتحسَّس اتجاه الريح، حيث مالت يميل.

خُلِقَ هكذا للتصفيق والقفز على المِنصَّات والتمسُّح بالشخصيات التي تزور المدرسة الوطنية للإدارة، والتي فيها يتخرَّج الولاة والوزراء ورؤساء الحكومات والسفراء والمديرون العامُّون للشركات والمؤسسات الحساسة؛ إنها المدرسة التي فرَّخت وتُفرِّخ جميع رجالات الدولة منذ تأسيسها عام 1964.

كان الهواري مستعدًا للتخلي عن عقله، فالآخرون هم الذين يفكرون بدلاً عنه، لا يريد أن يتحمَّل مسؤوليةً، ولكنه يريد أن يحتل مكانًا في المقدمة، يكتفي بترديد الخطابات التي يسمعها أو التي تُمْلَى عليه، خطابات نازلة من فوق، خطابات الأقوياء، وكان سعيدًا بأداء هذا الدور، دور التابع هو ما يتقنه ويُفضِّله، التابع إلى حين.

فضَّل أن يعيش في غرفة صغيرة يقاسمها معه طالبان آخران والتخلي عن غرفته الواسعة والمريحة في بيت الوالدين الفاخر، الأسرة لم تكن ملاذَه ولا استراحته ولا مرجعيَّتَه، كان يريد أن يكون بين الآخرين فضوليًّا وباحثًا عن شيء يريده: أن يقود بعد أن يُقاد.

العيش بعيدًا عن البيت الأسري خلَّصه من تسلُّط الوالد وجبروته وإملاءاته، وحرَّره من دلع الوالدة ومبالغتها في العطف عليه، والذي يجعل منه رجلاً هشًّا بدون مقاومةٍ في مجتمعٍ يتطلَّب الصلابة والعزيمة والشيطنة.

في البداية كان يحلُم أن يكون مغنيًا، انتمى إلى فرقة الحيّ، ثم أسَّس فرقةً موسيقيةً خاصةً به، لكنه بعد فترة قصيرة شعر بأن هذا الطريق لن يوصله إلى "القيادة" و"الزعامة"، وذات مساءٍ كسَّر جميع الآلات الموسيقية للفرقة وعاد إلى البيت، وظل مُعتكفًا لا يغادره إلا للضرورة، وما عاد يسمع الموسيقى، ودخل تجربة القراءة السياسية.

انخرط في منظمة طلابية شيوعية أو قريبة من ذلك التوجه الأيديولوجي، قاطَعَ دروس المدرسة الوطنية للإدارة، أصبح لا ينام إلا وهو يذكُرْ لينين ويُسبِّح بماركس ويُقْسم بإنجلس، بحماس يُرافِع عن شعارات يسمعها ويحفظها عن ديكتاتورية البروليتاريا والعدالة الاجتماعية ومناهضة الملكية الخاصة ومحاربة الفكر البورجوازي ومعاداة الدين باعتباره أفيونَ الشعوب، وكان لا يقرأ من الكتب إلا كتب الشعارات والبروباغاندا.. بهذا امتلأت جدران الغرفة التي أجَّرها وسط المدينة، بصور لزعماء يساريِّين من سياسيِّين وفنانين وكتَّاب وشعراء: تشي غيفارا، كاسترو، لوركا، نيرودا، فؤاد نجم، الشيخ إمام، مارسيل خليفة، بوب مارلي...

ومع الأيام الأخيرة لحكم الرئيس هواري بومدين، وقد بدأ التيار الإسلامي يستعرض عضلاته في الجامعات وفي الشوارع والمؤسسات التربوية والدينية والإعلامية، وظهرت أولى بوادر شرطة الأخلاق، غادر بسرعة التيار اليساري، وانحاز إلى هذه القوة الجديدة الصاعدة بقوة، وغيَّر من قناعاته بين عشية وضحاها، سقطت صور زعماء اليسار من على جدران الغرفة، وأصبح لا يتحدث ولا يستشهد إلا بأقوال ابن تيمية وسيد قطب وحسن البنا ومالك بن نبـي..

وكان مُتحمِّسًا للثورة الإسلامية الإيرانية ولعودة الخميني منتصرًا إلى طهران، وسعيدًا أيضًا بهزيمة الجيوش السوفيتية وأتباع خادمهم نجيب الله أمام ضربات وإيمان المجاهدين الأفغان؛ حتى

أنه كثيرًا ما أبدى استعداده للهجرة للجهاد في أفغانستان مؤازرةً للمجاهدين الإسلاميين وخاصةً تنظيم "طالبان".

ذات يومٍ، أذاعَ في محيطه بأنه سيسافر إلى دمشق ومنها إلى كابول، وقد اختفى عن الأنظار مدةً تزيد على ستة أشهر قضاها بقرية تسمى "نومرو أربعة وعشرين" في أقصى الغرب الجزائري، في ضيافة قريبة كانت طباخةً بأحد مُخيَّمات للاجئين على الحدود الجزائرية المغربية بمدينة أحفير سنوات الثورة التحريرية، والتي تقيم بضيعة واسعة كانت ملكًا لمعمر إسباني استولت عليها مع الأيام الأولى للاستقلال، وخلال هذه الإقامة ظلَّ يتابع الأحداث عن طريق الإذاعات وشاشة تليفزيون القناة الوطنية الوحيدة، وحين عاد وقد أطلق لحيته وارتدى لباسًا أفغانيًّا، أشاع في الحي وبين أصدقائه ومعارفه أنه كان في كابول، على جبهة النضال ضد الكفار، وبدأ يختلق حكايات عن مصاعب الوصول إلى الجبهة، وأنه تعلَّم استعمال جميع الأسلحة الخفيفة، وأنه شاهدَ الرسول والملائكة يحاربون جنبًا إلى جنبٍ مع المجاهدين، وأنه قبَّل قدمَيِ الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ويتأسف لأنه لم يكن قائدَ طائرةٍ عسكريةٍ، وأنه لو كان كذلك لقنبل الكرملين بموسكو، وبرجي مركز التجارة الدولية بمنهاتن، والبنتاغون بالولايات المتحدة الأمريكية، وقد حزِنَ لأن المسؤولين عليه طلبوا منه العودة إلى بلاده لممارسة الدعوة والتوعية السياسية في الجزائر بلد الثوار المجاهدين؛ فهذا البلد سيكون له شأن في رفع رسالة الإسلام قريبًا.

كلَّ مساء، وحَوْلَ كأس شاي قوية، في غرفته الضيقة، يتحلَّق حوله مجموعة من الطلبة للاستمتاع بالشاي والاستماع إلى تسجيلٍ لخطبة مصطفى بويعلي أو الشيخ عبد الحفيظ سلطاني، أو للاستفسار عن تفاصيل بعض مغامراته مهاجرًا مجاهدًا في كابول وفي أعالي جبال تورا بورا؛ في سبيل رفع راية الإسلام وعُلُوّ شأن المسلمين.

لم يكن يريد مغادرة البلد الذي يدخل شيئًا فشيئًا نفقًا مُظلمًا، وهو في ذلك مُجبَر على الدخول في مرحلةٍ تشترط تغييراتٍ عميقةً، هناك نداء داخلي يقول له: ابقَ؛ إن المستقبل لك في هذا البلد، عليك أن تدافع عن الدين الإسلامي في هذا البلد الذي حرَّرَه المجاهدون باسم الله أكبر؛ فلقد طغت فيه النساء السحاقيات والملاحدة، وكثُرَت المقاهي والبارات والخمارات، والاختلاط في الثانويات والمدارس هو سبب التخلف وسبب اللعنة التي أصابتنا.

"الدين هو الحل".. هكذا كان يقول لمن حوله من الطلبة.

لكن فجأةً اختفى، ولم يظهر له أثر.

تأخذني لالة مولاتي في أحضانها باكيةً تُقبِّلني، قائلةً: "لم يبقَ لي إلا أنت!!".

16

أنا حُرّ بن يقظان.

تنتظرني سنتان للخدمة العسكرية..

أول وظيفة مؤقتة مارستُها بعد أن تخرجتُ في الجامعة، كلية التربية وعلم النفس تخصُّص علم النفس الإكلينيكي، بدرجة متوسط، هي نائب مدير مصلحة النظافة والحيوانات الضالَّة في مدينة الجزائر العاصمة.

اليوم قفلتُ اثنين وعشرين عامًا بالتمام والكمال.

لا نعيش سن العشرين بكل وهَجِها إلا مرةً واحدةً في العمر، وها أنا أبتعد خُطوتين عن العشرين.

لا أتذكَّر أنني احتفلتُ بعيد ميلادي العشرين.

أذكُر بالتدقيق تفاصيل يومي الأول في هذه الوظيفة المؤقتة التي شغلتُها بمؤسسة حساسة، مؤسسة النظافة والحيوانات الضالة بمدينة الجزائر العاصمة، كانت الساعة الثامنةَ إلا ربعًا، بالضبط "السابعة وثماني وأربعين دقيقة"، يوم اثنين، يومًا غائمًا قليلاً كان، سماء مرصعة بغيوم داكنة دانية يمكن لمسها بأطراف أصابع اليد أو هكذا بدَتْ لي، ضباب صباحي أيضًا في رأسي.. تبدو وكأنما توشك أن تمطر، إنها الأيام التي عادةً ما يُتوقّع فيها سقوط الأمطار الخريفية الأولى ذات اللون البني الترابـي التي تُذكِّرني بطفولتي وأنا أجري حافيًا في الوحل في قرية تفاحة وسلوانة وأسافو تنهراتِّي وتطلبانِ مني الاحتماء من المطر.. أتذكَّر أيضًا أحواض أصباغ الصوف على السطح، أتذكَّر

صورها مع ضبابٍ في الذاكرة، الشريط غير صافٍ.. نحن في شهر أكتوبر، بالضبط "في الثامن والعشرين منه"، مع كل حلول موسم الخريف يسكنني شعور غريب قريب من الحزن أو الكآبة، أجد نفسي على حافة البكاء، ربما لأنه الفصل الذي وُلدت فيه وتُوُفِّيَت جدتي في اليوم الأخير منه، أشعر وكأنني أتعرَّى كما تتعرَّى الأشجار، وفي مثل هذه الأيام، مع الرياح الأولى المُحمَّلة بالغبار، في كل سنة تصاب أذني اليسرى بالتهابٍ حادٍّ يدوم ألمه ثمانية أيام، مع التجربة المتكررة بدأتُ أعرف أسماء الأدوية لمواجهة آلام التهاب الأذن فأُحضرها قبل بداية الزوابع دون تجشم عناء الذهاب لزيارة الطبيب.

منذ اليوم الأول في العمل تساءلتُ: هل يُقدِّرُ المواطن البسيط ثِقَل ومكانة مثل هذه المؤسسات في مدنٍ كبيرةٍ كالجزائر العاصمة أو القاهرة أو باريس؟ بدونها كانت هذه المدن ستختفي شوارعها تحت جبالٍ شاهقةٍ من النفايات وتسبح في أمواجٍ عاتيةٍ من الروائح العفِنَة الحادّة، وستغطيها أسراب الذباب والبعوض والقوارض.. مما خلق ربك وما لم يخلق!

منذُ أن تلقيتُ رسالة قبولٍ من إدارة هذه المؤسسة وأنا أحاول أن أقنع نفسي بأنني مواطن صالح؛ إذ قبلتُ العمل في مصلحة النظافة، كنتُ أُفكِّر في جنينة وجميلة، أُردِّد العبارة التالية بصوت مرتفع وكأنني أخاطبهما ولو في غيابهما الفجائِعِيّ: "في بلدنا، عمال النظافة أهم من رؤساء أحزاب المعارضة والموالاة على السواء"، أُفكِّر في كل ذلك وأنا أتقدَّم بعض خطوات داخل بهو بنايةِ المؤسسة شبه المُظلمة.

ضائع حُرّ بن يقظان في أول يوم عمل في وظيفة رسمية..

من مُدرَّجات محاضرات في علم النفس الإكلينيكي إلى مؤسسة النظافة والحيوانات الضالة!! على كلٍّ: العملُ شرفٌ.

تتشكَّل العمارة الكولونيالية التي تأوي مكاتب المؤسسة من ثلاثة طوابق بشارعٍ فرعيٍّ وسط العاصمة، محاطةً بحديقةٍ خلفيةٍ كبيرةٍ مُهمَلةٍ أشجارُها العتيقة تتآكل جذوعها، وهناك مرآب واسع مفتوح على الهواء مخصص لشاحنات جَمْع النفايات ومَرْكَبات الكنس الأوتوماتيكي الصغيرة ومركبات أخرى للإداريين والمسؤولين حسَب الرتب والدرجات، تستقبلني امرأة أربعينيّة عند المدخل، ليست جميلةً كثيرًا لكنها مثيرةٌ بحضورها ولباسها البسيط المتناسق الذي زادها أنوثةً،

ألوانه ليست فاتحةً لكنها جذابة، بخجلٍ وتردُّد يسكنان طرفَيْ عينَيْها الواسعتين، ميَّزَتني من جموع الداخلين والخارجين حتى قبل أن أُبادرها بكلمة استفسار، حتى قبل أن أحيِيَها، يبدو وكأني غريب الهيئة في هذا المكان، سقف بهو العمارة عالٍ كثيرًا؛ مما جعل جميع من يتحرك من تحته يشبه الأقزام.. بابتسامةٍ خفيفةٍ مرسومةٍ بسرعة على شفتَيْها وعلى ضفاف عينَيْها تقودني في رُواق طويل مُظلِم قليلاً أغلب مصابيحه مطفأة أو مُعطَّلة، أتبعُها، خطواتها سريعة على الرغم من أنها تقفز على حذاءٍ بكعبٍ عالٍ، حذاء السهرة؛ شعرتُ بنوع من الاضطراب، عطرُ المرأة غامضٌ كملامحها، قالت لي بصوت هادئ أعاد إليَّ قليلاً من اتّزاني وهدوئي ونحن لا نزال نقطع الرُّوَاق الطويل الذي كُلَّما تقدَّمْنا فيه ازداد ظلامه:

- اسمي كريمة، لكن الجميع هنا يناديني رِيمَا، اسم دلع.. قالت ذلك وابتسمت ورفعت خصلةً من شعرها من فوق جبهتها وعينَيْها.. ابتسمتُ أنا الآخر، أردتُ أن أقول لها: "اسم جميل وخفيف"، لكني بلعتُ لساني ولم أُعلِّق، بعد لحظات شعرتُ وكأنما كانت تودُّ أن أُعلِّق على اسمها المختصر، اسم الدلع هذا: "رِيمَا".

- هذا هو مكتبك، لقد قرَّرَ المدير العام السيد سليم بن دحمان أن تتقاسمه مع عمي البشير لارتيست، إنه أقدمُ عاملٍ في هذه المؤسسة ورئيس مصلحتَيِ الحيوانات الضالة والتشجير، هو هنا في هذه الغرفة على هذا الكرسي خلف هذا المكتب أمام هذه النافذة قبالة هذه السماء من العهد الفرنسي، إنه إرثٌ وطنيٌّ نادر.. قطعة أثرية، ثم رسمَت ابتسامةً خفيفةً على طرفَيْ عينَيْها الضيِّقتَيْن ذواتَيِ اللون الأخضر الزُّمُرُّدِي؛ فابتسمتُ أنا أيضًا ولم أُعلِّق، لم أُضِفْ شيئًا لأنني لم أعرف ما أضيفه، ثم قلتُ في نفسي: خفَّفَت عليَّ السيدة رِيمَا قليلاً من ضغط إحساس غريب ينتابني منذ الصباح، منذ قهوة الفطور، قلق ما، ألم في المعدة.

ضيِّقًا، بدَا لي لأول وهلة هذا المكتب الذي سأتقاسمه مع هذا الشيخ الذي أشرَفَ على السبعين أو تجاوزَ ذلك، والواقف بأناقة شاب في الثلاثين، في طقم أسود نظيف مكويّ بطريقة دقيقة وبربطة عنق سوداء راقية تنزل بهدوء على بطنٍ ضامر، رجل دون كرش، صبّحتُ عليه بالخير فلم يَرُدَّ عليَّ التحية، أو بالأحرى لم ينتبه أصلاً لوجودي الشاذّ وأنا أقتحم مكتبه دون إخطار، ربما كان

الرجل الأنيق ينظر إلى الغيوم من خلال النافذة المفتوحة كأنما يؤدي دورًا سينمائيًّا رومانسيًّا، أو كأنما يطل على فصل من دفتر ذكرياته في هذه المدينة الغامضة.

هي نافذته من أربعين سنة، وتلك قطعة سمائه التي ورِثَها من أيام الاستعمار، عن الاستعمار ورِثَ الغيوم، أما غيره فقد ورِثَ الفِيلاَّت والدُّور والأراضي الزراعية، بعضنا استفاد الملموس من إرث فرنسا وبعضنا الآخر استفاد من الوهم والغَيْم.

الماضي ثقيل، إنه يُشبِه جثة الميت؛ فهي أثقل من وزن صاحبها حين كان حيًّا.

تتراكم على مكتبه أوراق وقصاصات جرائد بالفرنسية لصفحات الكلمات المتقاطعة، وأخرى لمقالات بعناوينَ مُخطَّطٍ عليها بالأحمر الغليظ، وأخرى عبارة عن صُوَر حيوانات أغلبُها قطط وكلاب وأفاعٍ وقنافذ وجُرذان وذُباب وخنافس.. لم يلتفِتْ إلينا، ولم يُزعج لحظة تأمُّله لا موسيقى كعب حذاء رِيمَا على الزليج، ولا حديثها بصوتٍ عالٍ معي عن أوقات الدوام وعن عشرات الشاحنات المُعطَّلة التي تربض بالساحة خلف العمارة، والتي لم تتمكَّن الشركة من الحصول على قِطَع غيار لها وهي على هذه الحال منذ السنتين وأزْيَد، ولا عن إصرارها بإكمال الملف الإداري بإحضار بطاقة الإعفاء من الخدمة العسكرية وإلا سيظلُّ توظيفي في المؤسسة مؤقتًا.

منظر السيد ذي الطقم الأسود الذي كالتمثال الإيطالي جعلني لا أنتبهُ لكلامِ رِيمَا، إنه يشبه ياسر الفلسطيني.

الرجل بقامته المستقيمة وأناقته الشعرية، الواقف في مواجهة السماء وكأنه فوق غَيْمة، مملكتُه قطعة من سماء، ذكَّرَني فجأة بشخصية في فيلم إيطالي كلاسيكي حول الانتحار بعنوان "المنزل ذو النوافذ التي تضحك" (La casa dalle finestre che ridono).. شاهدتُه في صالة العرض الجميلة "الجزائرية" بشارع ديدوش مراد وسط العاصمة.

حين استدار ووجدَنَا قد اقتحَمْنا مكتبه بطريقةٍ عفويةٍ فيها ارتباكٌ طفوليٌّ واضحٌ، حاوَلَ أن يعدِل من عقدة ربطة العنق؛ خَطَتْ رِيمَا خطواتٍ نحوه، قبَّلَته على وجنتَيْه أربع قُبُلات، ابتسم لي وقد بدَا خجولاً خجَلَ الأطفال، وكأنما دخولُنا أنزَلَه من فوق غَيْمَتِه، بدَا حافيًا بدون غَيْمَةٍ، بدأ في جَمْع قصاصات الجرائد ووضعها في إضبارة، وبعناية فائقة أدخلَ الصُّوَر في غلافٍ كبيرٍ من الورق المُقَّوى.

لم يتكلم ولم تفارق عيناه مُربَّع السماء من خلف النافذة، ما ورِثَه من فرنسا الاستعمارية، ويبدو وكأنه سعيدٌ بقطعة السماء هذه التي ورِثَها، عليها يبني استقلالَه الوطني!

وهو يجمع الصور سقطت منه واحدة على الأرض تُمثِّل ثلاثة جُرذان سوداء اللون تطل برؤوسها من فتحة المجاري الصحية، لم ينتبه لسقوطها، تأملتُها عند قَدَم المكتب العتيق الذي هو الآخر من العهد الاستعماري والمصنوع من الخشب الزان الأصيل، وعلى الفور ذكَّرني هذا المنظر برواية "الطاعون" لألبير كامو، رواية تركت لديّ شعورًا بالقرف من صُوَر الجُرذان وهي تهجم على مدينة وهران، نفس الشعور خلَّفَه لديَّ أيضًا فيلم "الطيور" لهيتشكوك، خوف مُرِيع من الطيور رغم ريشها الناعم وأصواتها الجميلة المثيرة للفرح، من هذين اللقاءين بطاعون كامو وطيور هيتشكوك تكوَّنَ لديَّ ما يشبه فوبيا الطيور وفوبيا الجُرذان.

أُحبُّ الكلاب، وأحسُد شارل بودلير على حُبّه للقطط، هذا ما سمعتُه من أسافو التي كثيرًا ما حدثَتْني عن غرام بودلير للقطط والقمصان الجميلة.

صورة الجرذان عند قدمَيِ المكتب، تتقدَّم رِيمَا أو كريمة حتى تكاد تدوس عليها بكعب حذائها العالي، خِفتُ أن تعَضَّها الجرذان وهي الحاملة دون شك لفيروس الطاعون، أن تعَضَّ على ساقها الجميل أو أصابعها الخارجة بشهية من حذائها الصيفي، قفزتُ من مكاني وعانقتُ رِيمَا وسحبتُها جانبًا، اندهشَتْ بل فوجئتْ لتصرُّفِي ولجرأتي وأنا أحتضنُها دون سابق معرفة، دفعَتْني قليلاً واستعادت وقارها وكاريزمتها، أشرتُ إليها بأصبعي نحو الجرذان الثلاثة على الصورة، نظرت إليّ، وقد احمرَّت وجنتاها، أما بشير لارتيست فلم يُعِر حركتي الغريبة أي اعتبار؛ كان داخِلَ فيلمٍ رومانسيّ، أو على غَيْمةٍ هاربةٍ على كفِّ ريح.

مستغربةً حركتي، انسحبتْ رِيمَا من المكتب بطريقة شبه غاضبة أو غامضة، وهي تعبُر الرواق المظلم، تغيرَتْ موسيقى كعب حذائها، انطلقت مُخلِّفةً موسيقى بها ما يشبه إيقاع المارش العسكري، فكرتُ في أن أجري خلفها وأعتذر وأقول لها إنني أنقذتها من عض الفئران التي تنقل فيروس الطاعون، لكنني تسمّرت في مكاني ولم أستطع أن أمد خطوة واحدة.

شعرتُ بهواء المكتب أكثر اختناقًا بمجرد أن غادرَتْهُ السيدة أو الآنسة رِيمَا؟؟.. عاد الرجل السبعيني إلى مكانه واقفًا في مواجهة النافذة، مُحملِقًا في السماء التي تتلَّبد تارةً وتصحو جزئيًّا تارةً

أخرى.. نظرتُ عند قَدَم المكتب فلم أعثر على صورة الجرذان التي كانت ستعضّ على ساق رِيمَا لولا أنِّي عانقتُها وزحزحتُها من مكانها، اختفت الصورة، بدأتُ أبحث عن فتحة المجاري الصحية علَّها تكون قد تسللَتْ إليها.

- "يمكنك أن ترد على الهاتف"، قالها لي السيد الذي لم يغادر مكانه من أمام النافذة ولم يُنزل نظره من مربع السماء.

لم أسمع رنين هاتف، وليس هناك جهاز هاتف أصلاً فوق المكتب، أرى رأس جُرذ واحد يطل من الصورة التي تزحزحَتْ قليلاً من تحت المكتب، رأسًا بشاربَيْن كبيرَيْن، أين الآخران اللذان كانا يطلان من فتحة المجاري الصحية؟ تمنيتُ ألاَّ تعود رِيمَا إلى هذا المكان كي لا تعَضَّها الجُرذان.

رنين هاتف مثل حشرجة يطلع من قجر المكتب على الجهة اليمنى، سحبتُ باب القجر وتناولتُ السماعة، بعد الجملة الأولى عرفتُها من صوتها، حتى وإن كانت به بحّةٌ أخرى غير التي كانت تسكنه قبل قليل، إنها رِيمَا، أردتُ أن أعتذر لها على ما بدَرَ مني تجاهها، أن أقول لها إن ذلك لم يكن بنية خبيثة أو سوء تربية أو جرّاء جوع عاطفي، بل لأنني خفتُ أن تقرُض قدمَها الناعمةَ جُرذانٌ قبيحةٌ ومسمومةٌ، لكني شعرتُ بلساني يابسًا كقطعة حطب مُبلَّلة في فمي، قالت لي وفي صوتها نغمة سعادة:

- ... أخيرًا وصلَتْ قِطَع غيار شاحنات جمع النفاية هذا الصباح، بعد انتظار دام أزيد من السنتين، أنت فألُ خيرٍ على المؤسسة.. فجأةً وأنا سعيدٌ بمتابعة صوتها المفعم بالفرح تذكرتُ أن قدمي قد تكون في فم الجُرذ الذي يطل من الصورة، فقفزتُ وقطعتُ المكالمة بأن صفقتُ السماعةَ على الجهاز.

ابتعدتُ بعض خطوات، انتبهتُ فإذا بالجُرذ صاحب الشاربين قد اختفى مرةً أخرى، بدأتُ أبحث عن فتحةٍ للمجاري الصحية التي يكون قد تسلَّل منها مُلتحقًا بالآخرَيْن اللذَيْن كانا بصحبته على الصورة.

تمنيتُ لو أن الرجل انتهى من تأمُّل مربع السماء خلف النافذة، لكنه ظلَّ ملتصقًا بمكانه كأنما ينتظر نزول المسيح بين الفينة والأخرى، شعرتُ بحاجةٍ إلى وجوده، شعورٌ غريب، مع أنني لم

أتعرَّف عليه بعدُ بما يكفي كي أشعر بفراغ يُشكِّله بصَمْتِه، حتى ملامح وجهه غير ثابتة في ذاكرتي، فجأةً بدأت هيئتُه تأخذ شكل جُرذٍ كبير، جُرذٍ عملاق، أول ما لاحظتُه هو ذيله المشعّر الذي بدا عند أسفل السروال، تحرَّك الذيل عند عقب فردة الحذاء الإيطالي الأسود الملمّع بشكل أنيق، دون أن يلتفت الرجل إليَّ بدا طرفَا الشارب وقد تجاوَزَ شعرهما مستوى الأذنين جهة اليمين وجهة اليسار.. تمنيتُ لو تعود رِيمَا كي تنقذني من هذه الوضعية.. تململتُ في مكاني وأنا أحدِّق جيدًا في الذيل الكبير الذي أخذ يتبدَّى ويطول أكثر فأكثر نهاية السروال بين القدمين.. بدأتُ أنتظر متى تلتحق بنا الجُرذان الأخرى، أستشعرُ وجودها في البهو في شكل هذا الرجل الأنيق صاحب المربع في السماء، أسمع أصواتًا تشبه أصوات مشية الجُرذان وهي تزحف منزلقةً فوق الإسمنت أو الزليج، صوت مؤذن المسجد القريب يرفع آذان الظهر، صوته يصل قويًّا من النافذة المفتوحة على مربع السماء، هذا وقت الغداء، لا حركةَ في مكاتب المؤسسة، جميع الموظفين الذين أغلَبُهم بلِحًى طويلةٍ غير مُشذَّبة أسرعوا إلى المطعم الموجود في القبو، اختفى ذيل الجرذ من بين قدمي الرجل الجرذ العملاق، فكرتُ في أن أدفع به من النافذة في الفراغ كي يهوي من هذا الطابق الثالث الذي نحن فيه، الجرذان لا تموت حين تسقط من الطابق الثالث، هي كالقطط تسقط دائمًا على أقدامها وتُواصِل الحياة ساخرةً من العلو.

- "هذا وقت الغداء"، قالها الرجل وانسحب من أمام النافذة، وكأنما قرأ الفكرة الخبيثة التي تدور في رأسي، وهي رغبتي في دَفْعه من هذا العلو نحو الأرض.

كان مبتسمًا، رحَّبَ بـي، قائلاً:

- ما اسم أبيك؟

- آكسل، الجميع يدعوني حُرّ بن يقظان، في الصغر كنت أُلقّب بالروخو.

- أمك؟

- هاجر.. (لم أُرِدْ أن أقول لا سلوانة ولا أسافو)

- هل تريد أن تشاركني ما جلبتُه معي لوجبة الغداء يا ابن يقظان؟ أعرف أنك لم تُحضر معك شيئًا للأكل، هو يومُك الأول وأنت لا تعرف عاداتِنا في المؤسسة، فنِصْفُ عددنا

يتناول غداءه في المطعم المُخصَّص للعمال، خاصةً أصحاب اللِّحَى، والنصف الثاني، خاصةً من النساء، يُحضِرن معهن الأكل جاهزًا من البيت، جارتي ريحانة تمنعني من تناوُل طعام المطعم، هي إسبانية واسمها الحقيقي إسْتْرِيلْيَا المايدا، هي تُحبُّني حبًّا كبيرًا وتخاف عليَّ من نوعية الأكل غير الصحي الذي يُقدِّمونه للعمال، هي مَن تختار لي ربطات العنق وتشتري لي القهوة حَبًّا وتطحنها عند أحد مُحمِّصِي القهوة، الحاج ميمون الذي يعتقد أنه اليهودي الأخير في حَيِّنا الذي كان نِصْف ساكنيه أو أكثر يهودًا قبل خمسين عامًا.. وبدأ في إخراج ما أحْضَره من كيس بلاستيكي: خبز، وزيتون، وجبن؛ وضَعَ الكُلَّ على طاولة صغيرة قُرْبَ المكتب، حين رأيتُ قطعة الجبن غروبير عادت صورة الجُرذ العملاق لترتسم على ملامح الرجل، لم يكن له ذيل.

الجُرذان تُفضِّل الجبن، وطُعم مصيدات الفئران في أغلب الأحيان هو قِطَع جبن.

منحني قطعة خبز، وقرَّبَ مني صحن الزيتون والجبن، وعاد ليراقب مربعه في السماء قائلاً:

"هل تعلم بأنني سعيد لأني أشعر بأني أملك شيئًا في هذا البلد المستقل، سعيدٌ لأنني أملك مربعًا في السماء، قطعةً من السماء، أحرسها وتحرسني، أعيش عليها جُلّ عمري، أقفُ في هذا المكان ولكني فوق مربعي في السماء، وتنبُتُ لي عليه غيوم، ولي عليه شمس، ولي فيه ريح، ولا أحد يشاركني فيه، وسأغرس في الموسم القادم عليه شجرةَ تفاحٍ ودالية وبرتقال.. قلتُ لإسْتْرِيلْيَا المايدا: حين أموت، عليكِ أن تدفنيني في مربع السماء هذا.

إيستيلاّ موافقة، ولكن بشرط أن أدفنها هي الأخرى إذا ما ماتت قبلي في مربع السماء هذا.. الناس بعد الاستقلال استولت على العمارات والبيوت والمحلات التجارية وأراضي البايلك التي تركها المُعمِّرون، وحوَّلُوها إلى مِلكيّات خاصة، أما أنا فأخذتُ قسطي من السماء".

كنت أنظر إليه وهو يُحدِّثني أو يُحدِّث نفسه عن ملكيته لقطعة من السماء، وتخيلتُه طائرًا بجناحَيْ ملائكة، وأعجبني الفروماج وخبز إسْتْرِيلْيَا المايدا.

17

أنا حُرّ بن يقظان، لا أحب الروايات، لم أقرأ في حياتي رواية واحدة باستثناء رواية الطاعون، مع ذلك، ونزولاً عند ذكرى الغزالتين جنينة وجميلة، فقد قررتُ أن أُجرِّب هذه الكتب.

أذكر أنني حين قرأت رواية "الطاعون" لألبير كامو، اشتريتُ النسخة من عمي مولود بائع الكتب العتيقة، الموجود محله بشارع ديدوش مراد الرئيسي، غير بعيد من قاعة السينما الجزائرية، ليست المرة الأولى التي أشتري فيها كتبًا من عند عمي مولود، لكنَّ أغلَبَها كان في علم النفس أو الفلسفة أو التاريخ.. وأنا أتصفَّح رواية "الطاعون" بدأ مولود صاحب المحل يُحدِّثني عن علاقته الشخصية بألبير كامو كاتب الرواية، وأنه قد سبق له أن زاره في هذا المحل والتقط معه صورةً أشار إليها معلقةً في إطار لَوْحِيّ عليه مسحة من غبار، وأثنى على الحسّ الغجري والرومانسية الثورية اليسارية للشاعر جان سيناك الذي كان كثير التردد على المكتبة، وكذا الرئيس الفرنسي جاك شيراك وشخصيات كثيرة كانت كلما زارت العاصمة حجَّتْ إلى هذا المكان؛ حيث تتكدَّس آلاف الكتب، ما لا يخطر على بال!! بعد أسبوع من قراءتي لرواية "الطاعون"، ودون سابق تخطيط، وجدتُنِي أركب القطار في اتجاه مدينة وهران، لم يكن بالحقيبة الصغيرة التي حملتُها على كتفي من عفش سوى نسخة رواية "الطاعون" والفرشاة ومعجون الأسنان والبيجاما وأشرطة غنائية وجهاز مسجل صغير يشتغل بالبطاريات المُربَّعة المربوطة إلى ظهره بشريط مطاطي.

يوميًّا أنزل من غرفتي بفندق تيمقاد لأجلس بمقهى السينترا بشارع الصومام مقابل ثانوية باستور، شارع هادئ بالنخيل والعمارات الجميلة ذات الهندسة المعمارية الهوسمانية التي تعود إلى ثلاثينيَّات القرن الماضي، أيام مجد الزمن الكولونيالي، أجلس بالمقهى وأُعيد قراءة بعض فصولها، أستعيد فيها ألبير كامو وهو يحتسي البيرة أو يشرب فنجان قهوته السوداء تحت سحابة سيجارته،

هنا في هذا المكان حيث أجلس كان كامو يُخطِّط في دفترٍ مدرسيّ الفكرةَ الأولى لما سيُصبح لاحقًا روايةَ "الطاعون"، كان ذلك في عام 1939 حيث جاء إلى هذه المدينة مجبرا تاركا عالمه الخاص وأسرته وفرقته المسرحية وفي وهران أيضا أنهى كتابة مسرحيته الشهيرة "أسطورة سيزيف".

أطلب قهوة وأراقب سماء وهران..

بعد أن أحتسي قهوتي في مقهى السينترا الذي لا يزال يحتفظ ببعض ذكريات زمن الحرب العالمية الثانية من صور معلقة على الجدران، ولا يزال يستعمل ذات الكراسي والطاولات التي صُمِّمت على شكل براميل النبيذ، الزنافير، وعلى الساعة منتصف النهار وعشرين دقيقة، لماذا منتصف النهار وعشرين دقيقة، لست أدري؟ أجد نفسي أغادر المقهى، ثم أَشْرَعُ في قطع الشوارع الفرعية والرئيسية باحثًا عن الجرذان، جرذان ألبير كامو، فلا أجد لها أثرًا. أدور الشوارع وأعود من جديد للدوران كأنني "سيزيف" يحمل قدره حجرا على كتفيه.

الجرذان لا تخرج في النهار؛ لأن هناك جرذانًا أخرى تُنافسها على الشارع، إنهم هؤلاء المارّة القلِقون الخائفون المترددون الذين يبصقون على الأرض ويقطعون الشوارع كما يحلو لهم دون احترامٍ لقواعد نظام المرور.. سيارات وبشر، بشر وسيارات.

مساءً، أُفضِّل الذَّهاب إلى ملهى بشارع الصومام غير بعيد عن مقهى السينترا اسمه "الليالي اللبنانية"، أشربُ البيرة المحلية الرخيصة حتى مطلع الفجر، ثم أعود إلى غرفتي في الفندق الذي لا يبعد هو الآخر عن هذا المحل سوى بضع مئات أمتار.

وهران مدينة ضاجّة ليلاً، مدينة لها ليلها ولها نهارها، هي المدينة الجزائرية الوحيدة التي تعرف كيف تعيش، كيف تستقبل الغريب وكيف تُوَدِّعه كي يعود ثانيةً وثالثةً.

لا غريبَ في مدينة وهران..

الوهراني شخص مبتسم، مُقبِل على الحياة، والمرأة الوهرانية واضحة السلوك تعضّ على تفاحة الحياة بجميع أسنانها، عاشقة للحياة.

من كثرة إخفاقي في العثور على جرذان كامو، أصبحتُ مدمنًا على مدينة وهران، فكنتُ كلما ضِقتُ ذرعًا بصاحبي البشير لارتيس الذي يحرس مربعه في السماء خوفًا من أن يعتدي عليه

أحد أو يبني عليه بعض الانتهازيين سكنًا أو يُحوِّله إلى موقف للسيارات أو يستعمله مراحيض عمومية، وكلما خنقني جو مدينة الجزائر العاصمة المُمِلّ، مدينة بلا روح، مدينة إدارية بلا قلب، مدينة إما قلِقة، مستعجلة أو كئيبة، يواجهها البحر الجميل فلا تنظر إليه، كلما شعرتُ بمثل هذه الكآبة العميقة تُشبِه تلك التي تسبق عادةً حالة التفكير في الانتحار، أنزلُ، دون سابق تخطيط، إلى محطة القطار المركزية بساحة بور سعيد، أقطعُ تذكرة ذَهاب وإياب إلى وهران، لا أنسى أن آخذ معي في حقيبتي الجلدية (أديداس) جهازَ التسجيل الصغير (فيليبس) ومجموعةً من الأشرطة الموسيقية الغنائية للشيخ إمام وأم كلثوم وجاك بريل وبراسانس والشيخة الريميتي، لكل شريط ساعةُ استماعِه وله طقوسه الخاصة: أسمع أغاني أم كلثوم (لست أدري كيف سقطت فجأة في حب صوت أم كلثوم؟ ربما لأنها تذكرني بالغزالتين اللتين كانتا تعشقان صوتها) في القطار عند الذهاب وعند الإياب، إنها مُرافِقتي في هذه الرحلة التي تدوم من التاسعة ليلاً حتى الرابعة صباحًا، ومراتٍ حتى السادسة، حسَب تأخيرات القطار المتكررة، تكرارات أم كلثوم لمقاطع من أغنياتها يخفف الطريق الطويل، بمجرد وصول القطار إلى محطة بوفاريك، أول محطة بعد الانطلاق من العاصمة، أشغِّل جهاز التسجيل، تدور الأغنية تلو الأخرى، لا يتوقف صوت أم كلثوم إلا وأنا على أعتاب مدينة وهران جهة السانية، وفي العودة في اتجاه العاصمة، أُشغِّله مباشرةً حين وصول القطار محطة وادي تليلات ولا أُوقِفه إلا ونحن على أبواب العاصمة عند محطة البليدة، أحفظ ريبرتوار أم كلثوم كاملاً تقريبًا.. لأغاني الشيخ إمام ساعتها، أستمع إليها عادةً بعد أن أصحو من القيلولة التي تدوم بين نصف ساعة والأربعين دقيقة، ومراتٍ تمتد إلى الساعة، ما بين الثالثة والرابعة مساءً، فيها إيقاع يساعدني على مُطاردة الخمول الذي تتركه فيَّ هذه العادة اليومية التي أصبحتُ غير قادرٍ على التخلص منها.. الاستماع إلى الشيخ إمام تعلمته من الهواري كان جزءًا من اللون السياسي، فانتماؤنا أو تعاطُفنا الرومانسي مع أفكار المنظمات اليسارية الممنوعة كان يتطلب في الأساس الاحتفال وحفظ أغاني الشيخ إمام ومرسيل خليفة وخالد الهبر وجيل جيلالة.. كانت هذه الأشرطة تُتبادل في الأحياء الجامعية بين الطلبة الطليعيين والماويين، في المقابل كان الطلبة الإسلاميون يتبادلون أشرطة الشيخ كشك وكتب سيد قطب ومالك بن نبي.. أما أغاني جاك بريل وبراسانس فأُفضّل السماع إليها قبل الذهاب إلى الملهى الليلي "ملهى الليالي اللبنانية"، فهي تفتح لي شهية الحياة والمغامرة الليلية في مدينة وهران المضيافة والغامضة كقصيدة سريالية، وتُقدِّم لي صورةً عن شِعرية العالم ومفاجآته الليلية: سكارى آخر الليل، وبذاءة كلام العاهرات الشعري، والهذيان الفلسفي لمتعاطي الحشيش،

وجرأة المثليّين في استعراض أجسادهم على الرصيف وحركاتهم ولباسهم وماكياجهم وأنوثتهم المبالغ فيها.. وأفضِّل الاستماع إلى أغاني الشيخة الريميتي بعد أن أدخل غرفتي عائدًا من ملهى شارع الصومام مطلعَ الفجر؛ أغاني الشيخة الريميتي فيها حِسٌّ بالانهيار الداخلي والمقاومة في الوقت نفسه، الفجيعة والانبعاث، أسمعها مع آذان الفجر. هكذا أُوَزِّع أوقاتي في وهران بين أغاني أشرطة أحفظُها عن ظَهْر قلب ولا أستطيع أن أسافر دون أن تكون أوَّلَ أمتعتي مع بعض كتب الفلسفة والتحليل النفسي وبعض أغراض تافهة أخرى.

كلما دخلتُ وهران استعَدْتُ صورة جرذان كامو في الطاعون، استعَدْتُ معها رائحة البيرة التي تُقدَّم مع صحون الحلزون بالمرق الحار أو السردين المشويّ في العديد من خمَّارات وسط المدينة.

حين بدأ البشير لارتيست في قضم قطعة الجبن الصفراء التي أخرَجَها من كيس بلاستيكي أسود اللون، تخيلتُه جرذًا ضخمًا ستقفُل كماشة المصيدة العملاقة فكَّيْها على عنقه، أردْتُ أن أُنبّهه، فجأةً تحركَتْ معدتي، فأسرعتُ إلى البهو باحثًا عن دورة المياه كي أُفرِغ ما في بطني من قهوة الصباح السوداء.. من ارتباكي دخلتُ مِرحاض النساء ولم أنتبه إلا بعد أن غادرْتُه، سائلُ قطرانيّ خرج من فمي دفعةً واحدةً، شعرتُ براحة، حين حدَّقتُ في ملامح وجهي في المرآة وجدتُنِي بشاربين يشبهان شارب الجرذ الكاموي، ذُعرت لمنظري، خِفتُ أن ينبت لي ذيلٌ يخرج من أسفل السروال، لأول مرة فكرتُ في تدخين سيجارة، هي رغبة غريبة، لكنها سرعان ما اختفت، فأنا لا أُدخِّن على الرغم من أنني أرتاد المحلات العمومية المليئة بالمدخنين، المقاهي والخمارات والملاهي والمطاعم، كما أن جُلّ أصدقائي من المدخنين أيضًا.. ربما جاءتني هذه الرغبة لأن رائحة الدخان قوية في المرحاض الخاص بالنساء، فهنَّ لا يَجِدْنَ مكانًا إلا هنا كي يتمتعن بحريتهن وحقهن في التدخين، المراحيض هي فسحة الحرية بالنسبة للنساء، هي الفضاء الوحيد الذي يمتلِكْنه بحقٍّ دون دخيل.

الجزائري يمكنه أن يتسامح مع امرأة تزني، ولكنه لا يمكنه -في المطلق- قبول امرأة تدخن.. أن تُدخِّن المرأة فهذه فضيحة لا تُغتفر.

السيجارة أكبر من الزنا، في الجزائر!!

18

أول مرة اشتريتُ فيها علبة سجائر من نوع "إلهام"، تبغ من إنتاج وطني عادي، كان ذلك وأنا أستعد للصعود إلى القطار الليلي المتجه من العاصمة إلى وهران، وسجائر "إلهام" مصنوعة من تبغ برائحة النعناع المُنعِش تستهلكه النساء أكثر من الرجال، كانت تلك أول زيارة لهذه المدينة الساحرة التي سقطتُ في عشقها من لحظة وصولي إليها، ولكني لم أستطع أن أُدخِّن أكثر من سيجارتين طَوال الليل، وحين وصلتُ المحطة سحبتُ العلبة من جيبي ورميتُ بها في سلة المهملات واحتفظت بعلبة الكبريت.. من يومها لم أُدخِّن.

... وأنا أغادر دورة المياه الخاصة بالنساء التي دخلتُها خطأً استعادت ذاكرتي أريج طعم سيجارة "إلهام" ذات النكهة النعناعية مخلوطةً برائحة عربة القطار الليلي، رائحة تشبه رائحة البصل المشوي.

أعود إلى مكتب البشير لارتيست لأجده يعَضّ على قطعة الجبن الأصفر الغروبير بأسنان بيضاء ناصعة، أَرْعَبَنِي منظره، حاولت أن أعود أدراجي وأنادي بصوتٍ عالٍ على السيدة رِيمَا، لكنِّي تراجعتُ خجلاً، الرجل الأنيق الذي تختار له جارته إسْتْرِيلْيا المايدا ربطات عنقه بعناية كما تختار له قهوته حَبّا وتطحنها عند مُحمِّص هو آخر يهودي في الحارة وتُحضر له يوميًّا ساندويتشه ها هو يستعيد شكل الجُرذ العملاق، جثته تكاد تملأ المكتب بأكمله، خِفتُ أن أمشي فوق ذيله الذي يشبه حبل شبكة الصيادين، أن أدوسه فيعَضَّني وأموت بوباء الطاعون، وفي اليوم التالي تتناقل بعض الصحافة الأجنبية المُغرضة ووكالات الأنباء الفرنسية والأمريكية الإمبريالية سبب موتي "مات بالطاعون"، وأُسبِّب لحكومة بلادي حرجًا سياسيًّا كبيرًا، عيبٌ وعارٌ أن يكتب الأعداء عن بلادنا الاشتراكية والمستقلة بعد ثورة تحريرية بمليون ونصف مليون شهيد أن أبناءها يموتون بوباء

الطاعون الذي انقرض في جميع بلدان العالم أو كاد.. لأول مرة أشعُر بمثل هذا الإحساس العالي بالوطنية، وأنا الذي أبحث بكل الوسائل للحصول على بطاقة الإعفاء من الخدمة العسكرية التي هي رمز الوطنية، تذكرتُ المقطع الأول من النشيد الوطني وردَّدْتُه في صمت: "قسمًا بالنازلات الماحقات... والدماء الزاكيات الطاهرات" لستُ أدري لماذا، وبشكل مفاجئ، وأنا أنظر إلى بشير لارتيست يعَضُّ على الفرماج الأصفر تذكرتُ تفاصيل حكايةٍ رواها لي أحد الخبراء الفرنسيين المتخصصين في ترميم المخطوطات الشرقية، والذي أشرَفَ على فريقٍ دوليٍّ تولَّى عملية ترميم ذخائر مخطوطات تومبوكتو بتمويلٍ من منظمة اليونسكو، وقد دامت المهمة أربع سنوات، بعدَها انتقل إلى القاهرة التي أحبَّ أكْلَها وحياتَها الاجتماعية البسيطة، فبدَلَ أن يُقيم بها ستة أشهر امتدت به إلى سبع سنوات كاملة، جاءها لمواصلة برنامج المنظمة الأُمميَّة لحماية الإرث الإنساني من مخطوطات تحويها دار الكتب المصرية العريقة، مع مرور الوقت -وبسرعة فائقة- أصبح يتحدث اللهجة المصرية كأبناء البلد تمامًا، وهو الذي كان لا يتحدث إلا العربية الفصحى، يتحدث بالنحوي، بالمبتدأ والخبر وكان وأخواتها، أصبح يتكلم اللهجة المصرية أفضل مني، أنا الذي أُحِبّ سماع أغاني أم كلثوم في سفري الليليّ إلى وهران، وقد تابعتُ عشرات الأفلام القديمة بالأبيض والأسود والتي كنتُ معجبًا فيها بشكل سراويل الممثلين، وأيضا بحمالات الثدي على صدور الممثلات والراقصات المثيرات، وأحفظ بعض الأشعار العامية لأحمد فؤاد نجم وأُغنِّيها خطأً مُقلِّدًا الشيخ إمام.

التقيتُ بهذا الخبير الذي يبدو وكأنه مخبر محترف في مقهى السينترا بوهران، كنا نتحدث عن ألبير كامو ومحمد ديب وألبير قصيري، لا يترك صغيرةً أو كبيرةً إلا سجَّلَها في دفتر يحمله معه باستمرار، ما إن أذكر شيئًا: تاريخ حادثة، اسم مثقف، اسم أكلة شعبية، اسم صديق هاجَرَ إلى بلد أوربـي وأصبح شخصيةً مهمةً... إلاَّ سجَّلَ ذلك في دفتره واستفسر أكثر.. قال لي: إنه يُحضِّر كتابًا عن أسفاره في شمال إفريقيا، له دفتر ثانٍ مُخصَّص للعناوين وأرقام الهواتف وأرقام لوحات السيارات التي يستعملها، من رقم سيارة تاكسي إلى رقم سيارة صديق دعاه إلى فنجان قهوة أو عشاء واضطُرَّ في نهاية اللقاء أن يرافقه إلى الفندق الذي يقيم به.. شعرتُ بالسعادة لأنه لا يقيم في ذات الفندق الذي أقيم فيه.

يقابلني ونحن نحتسي قهوتنا في السينترا، وبصوت مُخنَّث حدَّثني الخبير أو المخبر الفرنسي الذي اسمه دومينيك فابْرْ، لست متيقنًا من أن اسمه الحقيقي هو هذا، مع أنه مُسجَّل على غلاف الدفتر بقلم أحمر غليظ.. سحب من سيجارته نفسين متتاليين وفتَحَ الدفتر على صفحة مُعيَّنة، صمتَ

لحظاتٍ وكأنما يؤدي دورًا في فيلم بوليسي رديء، يحاول تقليد طريقة كولومبو، يستعيد بعض التفاصيل: كأسماء الموظفين، وأسماء الشوارع، وأرقام العمارات، وساعات الدوام الصيفية والشتوية، وبعض الألبسة التي تلبسها النساء، وتلك التي يرتديها الرجال، وبعض الأكلات المصرية، واسم البيرة المحلية، واسم بائع الفول السوداني، وماسح الأحذية أبو مُهلَّب السوداني.. وعلى الرغم من حنينه للقاهرة وعِشْقه لها إلا أنني شعرت بأن في حديثه شيئًا من الخبث، قال لي إنه اشتغل في قسم ترميم المخطوطات الشرقية، وأن ما أثار استغرابه منذ اليوم الأول لدخوله دار الكتب بالقاهرة هو العدد الهائل من القطط بأحجام وأشكال وأعمار مختلفة تعيش داخل مبنى المكتبة. لم يتجرأ دومينيك فابْرْ -أشك في أنه اسمه الحقيقي- في البداية على السؤال عن سر وجود هذه القطط بالمكتبة، لكنَّ موظفًا بالقسم ذاته الذي اشتغل فيه، أفصَحَ له عن السبب بالقول: إن إدارة المكتبة قررَتْ تربية قُطعان من القطط لمحاربة مستعمرات الجرذان التي عشَّشَت وفرَّخت بالآلاف بين رفوف مخازن الكتب والمخطوطات.. وليؤكد كلامه ذلك أخرج من درجٍ قريبٍ مجلةً من المجلات الملونة السوقية، على غلافها صورة لمحافظ المكتبة بعنوان مثير "القطط تحرس مخطوطات دار الكتب"، إلى جانبه صورة بحجم أكبر من صورته بضعفين لمُغنّية صاعدة بخبر مثير "حوار مع الفاتنة الصاعدة التي اغتصبها سائقها في حديقة عمومية"، يؤكد السيد محافظ المكتبة في حوار طويل قائلاً: "حين لم تنفع لا المبيدات الوطنية ولا تلك المستوردة من ألمانيا وبريطانيا على اختلاف ماركاتها العالمية المسجلة في القضاء على الجرذان التي بدأتْ تتكاثر بشكل مرعب، أعشاش في كل ركن، وتحت السلالم، وبين المخطوطات الكثيرة: كلسان العرب لابن منظور، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وكتاب العِبَر لابن خلدون، وإحياء علوم الدين للغزالي، والبيان والتبيين للجاحظ، وكُتب السيرة النبوية، ومجموعة جورنال الوقائع المصرية... لقد اهتدت إدارة المكتبة -بالتشاور مع الوزارة الوصية على الثقافة وحماية التراث- إلى طريقة ذكية، فعّالة واقتصادية لمحاربة القوارض، وذلك عن طريق تربية مئات القطط من فصيلةٍ تم استيرادها من السودان والصومال وإريتريا واليمن قادرة على التهام الجرذان بالآلاف وفي فترة وجيزة، وقد كانت الفكرة فعالة، إذ اختفت الجرذان من بين المخطوطات نهائيًا، وما عُدْنا نراها ولا نسمع نَهِيزَها، لكن يبدو أن هذه القطط مع مَرّ الزمن ملَّت من لحم الفئران وما عاد وجودها مثيرًا، وبالتالي تصالحت معها، ومما رواه بعض عمَّال مكتبة دار الكتب أنهم شاهدوا بأمّ عينهم قطةً تُرضِع مجموعةً من صغار الفئران إلى جانب صغارها، والله أعلم؟ ولله في خلقه شؤون".

ضحكتُ كثيرًا وأنا أسمع من دومينيك فابْرْ وهو يقرأ هذا المقطع من حوار السيد محافظ دار الكتب، ومن يومها وبمجرد عودتي إلى العاصمة شرعتُ، لست أدري لماذا، في كتابة يومياتي، أنا الآخر أصبحت أقوم بما يقوم به دومينيك فابْرْ، أُسجِّل كل صغيرة أو كبيرة تحضر في حياتي اليومية، أكتبها كلَّ يوم قبل الذهاب إلى السرير بربع ساعة، مثلاً اليومَ كتبتُ في الدفتر الرابع للسنة الأولى في الصفحة السادسة والثمانين بعد المائتين:

"اليوم قرَّرَ بشير لارتيست أن يغرس شجرة ليمون في مربع السماء الذي يملكه، كان سعيدًا لأن السيدة إسْتْريلْيا المايدا عشيقته أو جارته أو صديقته أهدَتْه ربطة عنق جديدة وأخبرته لأول مرة بأن لها ابنة تُقيم بكاراكاس ستزورها في عطلة الميلاد، وأنها مُغنِّية معروفة، وستُحضر لنا معها مشروبًا فنزويليًّا، وبعضَ أشرطةٍ عليها تسجيلات لسهراتها، وأنها ستُغنِّي لنا في ليلة رأس السنة".

أكتب يومياتي دائمًا على عَجَل، وفي حالة نفسية غريبة، أكتبُها مستعملاً القلم الأحمر دائمًا، وذلك كلما شعرتُ بخوفٍ من أن تهاجمني الجرذان في سريري الذي بدأ يمتلئ بالكتب الموجودة تحت الوسادة وعلى الجوانب وعند الأقدام وفي الأسفل، أتصوَّرُ الجرذان طالعةً في شكل قُطعانٍ ومجموعاتٍ بعضُها صغيرٌ وبعضُها متوسطُ الحجم وبعضُها يُشبِه بشير لارتيست، من بين رفوف مكتبتي التي يتزايد عدد الكتب فيها يومًا بعد آخر.. أُغلِق الدفتر ثم أتكوَّر في فراشي، ركبتاي باردتان لاصقتان أسفَلَ فكّي، أنتظر الجُرذان متى تصعد لتشاركني فراشي، أتعب من التفكير في ذلك؛ فأنام مرعوبًا.

أخاف من رفوف الكتب، لا لأنني أتوقَّع سقوطها على رأسي فيحدث لي ما حدث للجاحظ، ولكني أخاف من الفئران التي قد تطلع عليّ في منتصف الليل وأنا أكتب على عَجَلٍ ليلياتي في دفتر مدرسي من 360 صفحةً، هو الدفتر الرابع الذي أوشكتُ أن أملأه.

19

أما حُرّ بن يقظان.

اليوم قفلتُ اثنين وعشرين عامًا..

نعيش العشرين مرةً واحدةً في العمر، ومع ذلك لم أنتبه لمرور العام العشرين فوق جسمي النحيل هذا، ولم أحتفل بعيد ميلادي.

كان عليَّ أن أبحث عن طريقة للحصول على بطاقة الإعفاء من أداء الخدمة العسكرية، فالسيدة رِيمَا لا يمر يوم إلا وذكرتني بأنَّ عليَّ أن أحل هذه المشكلة، فالمدير العام السيد سالم بن دحمان يرفض توقيع تثبيتي في وظيفتي ما دمتُ لم أحصُل على وثيقة تُثبت إعفائي من الخدمة العسكرية.. كنتُ أشعر بأن السيدة رِيمَا سعيدة؛ لأنها قد وجدت علةً لمكالمتي أو زيارتي في المكتب، هي تذكيري بقضية تثبيتي المُعلَّقة، إلا أنها كانت تستلذّ الحديث عن حياتها وعن ذكائها، وأيضًا عن سُلطتها على المدير العام، فهو خاتم في أصبعها.

هذا المساء قررتُ زيارة سيدي مولاي لأعرض عليه قضية الخدمة العسكرية علَّهُ يجد لي حلًّا؛ فهو صاحب شبكةٍ كبيرة ومعقدة من العلاقات.

حين دخلت البيت الذي كان عامرًا، كان الليل قد سقط، شعرتُ بالمكان باردًا، ثلجًا، لقد تلاشت حرارة الغزالتين من أركانه، اختفت الضحكات، وانسحب الهواري إلى مربع النسيان، وهو الذي كان مُدلَّلاً، سُلطانًا، ولم يعُدْ هناك سوى شبح الأزهري الذي صغُرَ عمره كثيرًا، يدخل ويخرج ولا يزال يُدوّخ رأس لالة مولاتي التي بدت عليها معالم الشيخوخة والتعب.

استقبلتني لالة مولاتي ببشاشة، عانقتني، قبَّلتني أربعَ مراتٍ، عطرها هو هو، دعتني للجلوس؛ فسيدي مولاي في استقبال ضيفه الأزهري، يقرآن بعض آيات الذكر الحكيم ويتناقشان حول التنظيم السياسي الذي تعمل الجماعة على التفكير في إطلاقه؛ فنظام العقيد على وشك السقوط.. أدرتُ نظري في الصالون فاسترجعتُ ليالي تحضيرات امتحان شهادة البكالوريا، وقصة حيّ بن يقظان، وحكاية الغزالة المرضعة التي قادتني تلك الليلة إلى سرير جنينة وجميلة.

جهاز التليفزيون يبث حصة دينية للشيخ محمد الغزالي.

لم يتأخَّر سيدي مولاي، فقد جئتُ في موعد مغادرة الأزهري، سلَّمتُ عليه، ولأول مرة ألاحظ أنه ترَكَ اللحية تطول قليلاً، بيضاءَ، لقد تغيَّرَ كثيرًا مع أنني لم أغِبْ عن البيت أكثرَ من ستة أشهر، كان فرِحًا بوجودي في البيت، لم يقل شيئًا، بقيتُ أنا الآخر ساكتًا. صبَّت له لالة مولاتي كأس شاي، شربه على دفعتين، وحين شعَرْتُ بأنه يريد أن يغادر المكان، تجرَّأتُ قائلاً:

- يريدون مني في العمل بطاقة الإعفاء من الخدمة العسكرية، دونها لا يمكن تثبيتي في الوظيفة، وإذا لم أستجب سيُسجَّل اسمي لدى الدرك الوطني في قائمة الفارِّين من الخدمة العسكرية؟

ظلَّ سيدي مولاي صامتًا، لم يرُدّ، لم يُعلِّق، ثم غادر الصالون، اقتربتْ مني لالة مولاتي لم تستطع التحكم في دمعها ولا في بكائها:

- لقد عمّ الخرابُ هذا البيتَ، نزلَتْ عليه اللعنة، إنهما في المستشفى.

عانقتُها، وبكيتُ بحرقة، وغادرتُ المنزل على الفور راجعًا إلى الأستوديو الذي استأجرتُه منذ غادرتُ غرفة الحي الجامعي بعد التخرج.

هذا الصباح بدا لي بشير لارتيست في كامل نشاطه، مُحملِقًا في مربعه في السماء، يراقب شجرة البرتقال التي غرسها هناك، ويتأمل بعض الغيوم فوق مملكته، حين دخلتُ استدار بهدوء ثم قال لي:

- لقد وصلت البارحة كاميليا، على الرحلة رقم 3145 القادمة من روما.

- كاميليا؟

- كاميليا التي حدَّثتك عنها، ابنة إسْتْريلْيا المايدا، صديقتي التي تختار لي ربطات العنق، وتُحضر لي الساندويتشات، وتمنعني من الأكل في مطعم الشركة.

- اسمها كاميليا؟

- نعم، وتُغنِّي، ولها أشرطة موسيقية مُسجَّلة لدى شركات فنية معروفة بأمريكا اللاتينية.

- اسمها كاميليا، ابنة إسْتْريلْيا؟

- نعم، وستقضي معنا عطلة أعياد الميلاد، وستُغنِّي لنا ليلة رأس السنة، وأدعوك لتكون معنا ضيف السهرة، سنرقص كثيرًا.

- شكرًا السي البشير، شكرًا.. شكرًا..

- لأول مرة أعرف أن اسمي البشير!!

- ما اسمك، عفوًا سيدي البشير؟؟

- اسمي يعقوب عسل - الزمن.

- ؟؟؟

حين دقَّ الهاتف، عاد يعقوب عسل - الزمن أو بشير لارتيست لمقابلة مربعه في السماء، قائلاً بصوت هادئ كي لا يزعجني وأنا أستعد للرد على المكالمة.

- أريد أن أسقي شجرة البرتقال التي غرستُها البارحةَ في المربع السمائي.

بدأ يُحدِّق في الغيوم كي تتجمع، وما هي إلا دقائق حتى اختفت الزُّرقة من سماء العاصمة، وسقط مطر مُخيف وعنيف على الأرض وعلى مربع بشير لارتيست.

- نعم أنا آكسل، قلتُ ذلك ردًّا على المكالمة الهاتفية.

- سيدي مولاي ينتظرك بالبيت، عليك أن تحضر حالاً.

كان صوت لالة مولاتي هادئًا وجميلاً، على الفور نزلتُ إلى الطابق الأرضي عند السيدة رِيمَا، كانت سعيدةً أن تراني، لأول مرة بعد سبعة أشهر من العمل أدخل مكتبها، قالت لي وهي تُقبّلني بحرارة:

- أتمنَّى أن تكون قد حصلت على بطاقة الإعفاء من الخدمة العسكرية.

- هناك أمر طارئ في بيت عمي سيدي مولاي، يطلبون مني الحضور فورًا، فهل تسمحين لي بمغادرة المكتب قبل الوقت المناسب؟

- لا مانع.

كانت رِيمَا حزينةً، مُطفأةً، نظرتْ إليَّ ثم بدأت في سرد قصة شفيقة آيت مسعود، لم أكن أتابع ما تقوله، لكني كنتُ ألاحظ رعشةً في ركبتَيْها وتلعثُمًا في كلامها وقد احمرَّت وجنتاها:

"اليوم هو الذكرى الخامسة لوفاتها.

شفيقة آيت مسعود امرأة من تبر، هي المرأة التي عشقتُها، المرأة حين تعشق امرأة أخرى تذوب فيها حدَّ حتى التلاشي، يختفي الرجال نهائيًّا من المشهد.

اليوم، هذا الصباح، تذكرتُ مهجتي شفيقة آيت مسعود؟ تذكرتُ أنها ماتت، علمتُ بخبر موتها من الصديقة حليمة أقاسم التي التقيتُها صدفةً في الحمّام، خبر موت شفيقة حرَّك فيَّ أيام الجامعة، أيام الجنون والأحلام.. بكيتُ على شفيقة آيت مسعود كما لم أبكِ على أحدٍ من قبل، لم أبكِ موت أمي كما بكيتُها.. الواقع أنني كنت أبكي على نفسي، على وحدتي، شعرتُ وكأنني أنا التي متُّ، انتبهتُ إلى أنني بدون شفيقة ميتةٌ دون أن أعي موتي.

ماتت شفيقة آيت مسعود، وحين تموت امرأة مثل شفيقة آيت مسعود عليَّ أن أعيد ترتيب كل شيء فيَّ ومن حولي.

كانت شفيقة آيت مسعود طالبة جميلة، جسد ممتلئ، مثيرة ومغامرة وذكية، ضحوكة، لا تمر دون أن تدير رؤوس الطلبة وتلوي أعناق الأساتذة، منذ أن تعرفتُ عليها في السنة الأولى بالجامعة

وهي تحلم أن تكون مغنية البارات الصغيرة ومطاعم الأزقة الضيقة، فتاة مسكونة بالحياة والموسيقى والغناء، دمها من نوتات موسيقية، وأنفاسها من إيقاعات خالدة، كانت ترسم مستقبلها كما يرسم طفلٌ سمكةً على ورقة دفتر مدرسي ويُلوِّنها كما يريد ويرميها في أعماق اللون الأزرق أو يضعها على سطحه، هي الأخرى كانت تُلوِّن مستقبلها من خلال أيامها وساعاتها في الحياة، كانت تخرج مساء كل سبت، وهو يوم نهاية الأسبوع، قبل أن تتم أسلمة العطلة الأسبوعية لاحقًا، في ظل النظام الاشتراكي الإسلامي تحت قيادة الكولونيل هواري بومدين لتصبح عطلة نهاية الأسبوع يوم الجمعة، كانت تخرج مساءَ كل يوم سبت إلى ملهًى صغيرٍ بشارع طنجة الشهير لتغني فيه، لا تعود إلى غرفتنا بالحي الجامعي إلا مع مطلع الفجر، كنتُ أخشى عليها من السكارى ومن مُريدي مثل هذه المحلات الغريبة التي تُستهلك فيها جميع المحرمات وهي الطالبة الساذجة القادمة من إحدى قرى منطقة القبائل بأعالي جرجرة، لكنها كانت فتاة شجاعة، تُخفي في حقيبة يدها أدوات زينتها ومعها مُدْيَة حادّة لاستعمالها عند الضرورة؛ فالليل غير مُطمْئِن، كانت تقول لي وهي تُخفي السكين في حقيبة يدها: "سأصنع مستقبلي ولو على حدِّ هذا الخنجر! في هذا البلد لا ماكياج دون سلاح، في هذه الحقيبة يترافق الموت مع الحياة، أدوات الزينة وأدوات الجريمة" تعانقني، تُقبِّلني، نتعرَّى، نضيع في بهاء احتكاك الجسدين، تشتعل النار فينا، نصرخ، نعوي، ثم نرتخي، تنهض، تراقب ساعتها في معصم يدِها، تدخل الحمام تُصَوْبِن جسدها بسرعة، تُلَفّ في فوطة، تُسرِّح شعرها بالسيشوار، تتزين ثم تُقبِّلني أنا التي أظل ممدَّدَةً على السرير قائلةً: "نامي يا دجاجتي، الدجاج ينام مبكرا".

تخرج، أبكي غيابها وأحتضن الفراغ، أغار عليها من الرجال ومن النساء أيضًا، لا أنام، أنتظر عودتها عاريةً بين الشراشف.

حين تعود شفيقة آيت مسعود إلى الغرفة، بعد سهرة حمراء، من سريرنا أراقبها، تفرك أسنانها بمعجون ذي طعم نعناعي قوي تطرد به رائحة البيرة أو الريكارد ثم تضع منديلاً حريريًّا كبيرًا على رأسها تغطي به شعرها وتصلي ما تأجّل من الصلوات الخَمْس، صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء دفعةً واحدةً، أراقبها وهي تسجد وتركع في خشوع، في الظلام أو في ضوء الفجر الطالع، كانت لا تتحدث العربية إلا في أداء الصلاة، أشعر بها تتسلق السرير، تتمدَّد بجواري، تعانقني، تُقبِّلني على فمي، تُردِّد بعض الأدعية، أدعيةً تحفظها عن ظهر قلب، كانت تقول لي: "العربية لله، والأمازيغية لأمي، والفرنسية للحياة"، نغرق في جحيم شهوة تنتهي بآهات وصراخ، ثم كملاكٍ تستسلم لنوم عميق، في الصباح، صباح يوم الأحد الذي هو عطلة، أراقب ملامح وجهها

الطفولي فوق الوسادة، أتركها نائمةً وأخرج لتناوُل فطور الصباح مع الدجاج الآخر في المطعم الجامعي!! أُحضِر لها معي بعض المربى وقطعة خبز، أجلس قبالة النافذة، أقوم بما أقوم به كل يوم أحد، أغسل ملابسي وملابسها الداخلية وجواربنا المختلطة وثيابًا أخرى، حين تستيقظ، يكون النهار قد انتصف أو كاد، نشرب قهوةً معًا، ثم نضحك وتحكي لدجاجتها، التي هي أنا، تفاصيل ليلتها في الملهى، ثم نعود إلى السرير والعِناق.

اليوم هو الذكرى الخامسة لرحيلها، الأيام تمر كالبرق!!

ماتت شفيقة آيت مسعود، ومع رحيلها مات نصفٌ مني، لم أُفكِّر أنَّ مثل هذه الفتاة الجميلة المليئة بالحياة وبالموسيقى والرقص والصلاة ستموت يومًا، ستختفي نهائيًّا من الحفل، ستنزل من على المنصة النزول الأخير، أنها لن تضحك مرةً أخرى من أستاذ النحو العربي الذي كان يتحرَّش بها، يكتب لها رسائل عشق على ورقة الامتحان، تقرؤها لي، تعانقني، تقبلني، وتضحك.

لم أُفكِّر يومًا في الموت مثلما أُفكِّر فيه الآن وأنا أستعيد بعض أيامي مع الراحلة شفيقة آيت مسعود، عاشت كما أرادت، وماتت كما أرادت، الموت كما الحياة قرار فردي.

شفيقة آيت مسعود فتاة من جرأةٍ خالصةٍ وبجرعةٍ عاليةٍ، جاءت إلى الجامعة من قرية صغيرة مُعلَّقة على جبال جرجرة، غير بعيدة من المكان الذي يسمى "يد اليهودي" المُطلّ على قرية الفنان الكبير شريف خدام، درسَتِ الأدب الفرنسي لكنها كانت تريد أن تكون امرأةَ سلطةٍ، أن تكون عقيدًا أو جنرالاً في الجيش، أو مجرمةً محترفةً أو مُهربةَ ممنوعاتٍ في مدينةٍ من المدن الإيطالية، كانت تريد أن تنتقم لأمها التي هجرها أبوها وهي لا تزال في حضنها رضيعًا لم تتجاوز الشهر الرابع، ذهب هذا الأب النذل ليبني حياةً جديدةً مع مُغنِّية أعراس اسمها ماسّة الشطّاحة، كانت فنانةً معروفةً تجُرّ الآلاف إلى حفلاتها للتفرُّج والتمتع بارتجافة رَدْفَيْها الكبيرين، كانت تؤدي رقصًا بفخذين عاريَيْن، شبقيًّا يدوخ الرجال والنساء أيضًا، لكنَّ حياته معها لم تدُم طويلاً، بضعة أشهر من عسل تنتهي بحادثة موت فظيع، لا يزال ساكنو القرى يتحدثون عنها، لقد وُجِدَ رأس والدي الحسين آيت مسعود، ذات صباح باكر، مقطوعًا مرميًّا دون جثة في مكان بغابة بوشاوي على أبواب الجزائر الشمالية الغربية، وُجِدَ الرأس بفمٍ مفتوحٍ عاضٍّ على عضوه الجنسيّ الذي اقتُطِع من جسده.. أُشِيع بأن عشيقًا قديمًا لزوجته المُغنِّية ماسّة الشطّاحة، وهو رجل غيور جدًّا، والذي عمِلَ عازفًا على

الطبل معها لمدة ثلاث سنوات، هو مَن قام بالفعل الشنيع هذا، وأن هذا الأخير اختفى هاربًا إلى مدينة وجدة بالمغرب.

دُفِنَ رأس والدها الحسين آيت مسعود بعد أن سُحِبَ العضو الجنسي من الفم.

التحقتْ شفيقة بالمدرسة الوطنية للطيران بطفراوي على بُعد ثلاثين كيلومترًا جنوب مدينة وهران، بعد أن توقفَتْ عن مواصلة دراستها الجامعية، كانت تريد أن تكون قائدةً، أن تعيش كالصقر في السماء بعد أن حُوصِرت فوق الأرض.

الآن أتذكَّر كم كانت جميلةً، الجمال كله، ارتجف جسدي لرؤيتها، حين فاجأتني بزيارتها الأولى وهي في لباس طالبة ضباط الطيران، ازدادت أنوثةً على أنوثة، أناقةً على أناقة، وكنتُ قبل ذلك أعتقد أن اللباس العسكري يطبع المرأة بهالةٍ ذكوريةٍ ويُفقدها رقَّتها وهشاشتها الجميلة ويُحوِّل شفافيّتها إلى حائط أعمى، وشفيقة تقف أمامي شعرتُ لأول مرة أن الأنثى قادرة على الحرب وقادرة على الطيران.. لكني أنا كنت عاجزة، فاقدة الجناح، مكسورة العزيمة، لم يكن قدري بين يدي، أو هكذا كنت أُبرِّر خوفي وهزيمتي، أكتفي بأحضان شفيقة وبقراءة سلسلة الروايات الشعبية عن الحب، رواية ماء الورد، الواحدة بعد الأخرى، تنام الكتب تحت وسادتي، وأنام في أحداثها ولا أستفيق، أبكي مع البطلات الجميلات على خيانة الرجال الأنيقين، وأنتظر مع المنتظرات الباكيات شفيقة التي هربَتْ نسرًا في السماء.

ماتت شفيقة في حادث طائرة تدريب في يومٍ عاصفٍ.. بكيتُ عليها، ورأيت جثمانها على شاشة التليفزيون مُسجى بالعلم الوطني.

شفيقة هي آخر حبي، يا آكسل.

حب النساء للنساء لا يُبدَّل، يا آكسل."

انسحبت من مكتب ريما حزينا، في اتجاه بيت سيدي مولاي.

20

أنا حُرّ بن يقظان.

ليل العاصمة ينزل بسرعة، وجدتُ المنزل خاليًا، بنهمٍ تأكل الأيام جسد لالة مولاتي، تقوَّس ظهرها قليلاً، شعرتُ بتعبٍ فوق كتفي، وبحزنٍ ثقيلٍ بداخلي، كان سيدي مولاي بالخارج، ولالة مولاتي تنتظره قبالة الباب الخارجي، تركتُ الصالون وصعدتُ إلى غرفتي التي قضيتُ فيها سنوات، هي على حالها بسريرها ومخدتها ومكتبها وبعض أغراضي لا تزال في الدولاب، حين وضعتُ رأسي على المخدة، بحزنٍ تذكرت جنينة وجميلة، فراغ مُريع، ونزلت يدي لتتحسس عضوي وأنا أستعيد الليالي التي قضيتُها على سريرٍ ثلاثيّ بينهما في غرفتهما، حين اشتعل جسدي حرارةً، تسللتُ من سريري وصعدتُ إلى غرفتهما في الطابق الثاني، وجدتُ الباب نصف مفتوح، دخلتُ، كان السرير خاليًا، والغرفة باردة، لا أنفاس ولا حمحمات ولا ضحكات، تمددتُ على السرير وأغمضتُ عينَيّ وأعدتُ الغزالتين إلى مكانهما واحدةً على اليمين والثانية على اليسار، والأثداء الأربع إلى فمي، ثم اشتعل الجسد، وعدتُ إلى عضوي الحميم ألاعبه، ففاض، من على قمة الرعشة شعرتُ بارتخاء ثم بإعياءٍ شديدٍ ثم برغبةٍ جامحةٍ في النوم، وقبل أن تذكرتُ أَنْ عليَّ أن أعود إلى غرفتي فمن العيب أن تجدني لالة باتول ممددًا في سرير ابنتَيْها غدًا صباحًا، وقبل أن أتسلَّل وأنسَحِب من الغرفة تساءلتُ: أين جنينة وأين جميلة؟ أين الهواري؟

حين نزلت في الصباح لتناوُل الفطور، كان سيدي مولاي واقفًا أمام المرآة يُقلِّم شعر لحيته التي يُصِرّ على المحافظة عليها غير كثيفة، سبقه عطره الخفيف إلى الصالون حيث أقف، حيَّيْتُه، ثم أمرني أن أركب معه في السيارة، كان صامتًا، لقد تعودتُ على مزاجه الصامت هذا، ولم أعُدْ أقلق لذلك، شخصيته غامضة.

ركبتُ إلى جواره في سيارته المرسيدس، وسرنا في اتجاه الغرب، لم يكلمني، وكأنما نسي تمامًا أنني أجلس في المقعد الأمامي على يمينه.. تحركت السيارة بهدوء، ثم ما فتئ أن زاد من سرعتها، اخترقنا شارع تليملي الرئيسي، ثم انعطفنا نحو الطريق الوطني رقم واحد في اتجاه الغرب، وأخيرًا حين استوت السيارة على الطريق الوطني التفت إليَّ قائلاً:

- لقد أطلقتُ اسم جنينة على ابنتي تخليدًا لاسم ابنة مصالي الحاج، ابنته من الفرنسية إيملي بوسكوانت التي ناضلت من أجل ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية، وهي المرأة المناضلة التي على يدَيْها تم تصميم أول علم جزائري رسمي والذي لا يزال يرفرف حتى الآن رمزًا للحرية ("أية حرية" قلتُها في نفسي)، أما أختها جميلة فقد سميتُها على اسم المناضلة جميلة بوحيرد التي حُكِمَ عليها بالإعدام وتزوجَتِ المحامي الفرنسي الذي تولَّى الدفاع عنها وهو جاك فيرجيس، أما الهواري فأعطيتُه اسم هواري بومدين.

كنتُ أستمع إليه محاولاً البحث عن علاقة هذا الحديث بما نحن ذاهبون إليه؟

- أنت ترى ما آلت إليه البلاد من فوضى ومن ثقافة الاتكال والكسل وانهيار الفِلاحة والسياحة والثقافة والصحة.. الآن أُدرك أن العسكري لا يمكنه أن يقود بلدًا، ليس كل من قام بالثورة أو قادها قادرًا على تسيير شؤون بلد مستقل، تسيير الدولة ليس كقيادة الثورة التحريرية، لو أن قيادة مرحلة الاستقلال، مرحلة ما بعد الحرب التحريرية، كانت قد سقطت بين يدَيْ ثلاث شخصيات تاريخية لكانت البلاد على عكس ما هي عليه: مصالي الحاج، وفرحات عباس، وعبان رمضان؛ هؤلاء الثلاثة كانت لهم رؤية لبناء دولة مدنية نظرًا لثقافتهم وحِسِّهم المدني، دون شك في تفاوت في الرؤية، واختلافات في التوجه، لكنَّ ما يجمع هؤلاء هو مدنيَّة الدولة والحِفاظ على التواصل التاريخي.

لم أكن أعرف بأن سيدي مولاي له كل هذا الوعي وهذه القدرة على التحليل التاريخي وربط مآساة الماضي بأعطاب الحاضر.

السيارة تقطع الطريق بسرعة فائقة، وها أنا أكتشف لأول مرة رأي سيدي مولاي في نتائج الثورة ونقْدِه لرفاق دربه الذين يقول عنهم: لم ينجزوا حُلم الشهداء، ولم يؤسسوا دولةً مدنيةً قادرةً على حماية أمْنِها الغذائي قبل أمنها العسكري.

أردتُ أن أسأله عن وِجْهتنا لكني تراجعت؛ إذ لاحظتُ السيارة تغادر الطريق الوطني لتنعطف يمينًا وتدخل مدينة البليدة.

- حتى هذه المدينة كانت تُسمَّى مدينة الورود، اليوم هي مدينة المجانين، لا تُعرَف المدينة بوَرْدها ولا برتقالِها ولا موسيقاها الأندلسية، بل تُعرف بمستشفاها الخاص بالأمراض العصبية، "مستشفى فرانتز فانون للأمراض العقلية".

ثم سكت، تصوَّرتُ أنه يفكر في ابنتيه جنينة وجميلة اللتين أصيبتا بانهيار عصبـي وأنهما نزيلتا هذا المستشفى أو غيره، ثم قلت في نفسي: ربما هي زيارة لهما.

لستُ أدري لماذا أشعر بأن نبرة صوت سيدي مولاي فيها كثير من مشاعر الحب تجاهي؟ بدا لي صوته حنونًا، رؤوفًا، رؤومًا، وكأنما كان يريد أن يُفصح لي عن سر يُخفيه عني منذ سنوات.

ونحن نقترب من مدخل مستشفى فرانتز فانون للأمراض العقلية علَّق سيدي مولاي قائلاً:

- منذ 1933 أنشئ هذا المستشفى خصيصًا للأمراض العصبية، وعند الاستقلال كان به أكثر من ألفَيْ سريرٍ، وأزيد من ألف موظفٍ بين طبيب ومساعد طبيب ومُمَرِّض وإداريّ، اليوم تمَّ تقليص حجم استيعاب مرضى الأعصاب في هذا المستشفى مع أن الشعب كله أصبح مريضًا عصبيًّا.. يجب أن تتحوَّل البلاد كلها إلى مستشفًى للأمراض العقلية.

أعجبني تعليقه، وابتسمتُ وابتسمَ هو الآخر بحُزْن.. ثم تساءلتُ بيني وبين نفسي: لماذا اصطحبني معه لزيارة جنينة وأختها جميلة؟ لأول مرة أزور هذه المؤسسة مع أن التوأم موجود هنا منذ فترة، لا أذكر بالضبط كم من الوقت مرّ عليهما في هذا العزل.. استغربتُ أيضا لمجيء سيدي مولاي لزيارة ابنتَيْه، وهو الذي كما تؤكد زوجته لم يضع قدمًا هنا منذ أن تم إدخالهما المركز الطبـي؛ كان يخجل من أن يُقال عنه: إنه أب لابنتين "مجنونتين".

الجنون عيب، كالزنا وكالإفطار في رمضان؟

لم يُوقِفنا الحارس، بل أدَّى التحية لسيدي مولاي، الحقيقة أنه أدى التحية لنوع السيارة "مرسيدس"، سيارة من هذا النوع لا يملكها إلا مَنْ ملكَتْ أيمانهم من حاشية السلطان.

سارت السيارة بين البنايات التي بدت عليها الشيخوخة وتراكمت عند أقدامها الأوساخ، كنتُ أُدقِّق النظر ذات اليمين وذات اليسار علني أشاهد جنينة أو جميلة؛ إذ كانت هناك بعض المريضات من الإناث يجلسن على مقاعد حَجريّةٍ وخشبيّةٍ مُوَزَّعاتٍ ما بين أشجار الكليتوس العتيقة التي تعود إلى العهد الفرنسي.

شعرت بقلق غريب.. أنا حُرّ بن يقظان!

أخيرًا توقفت السيارة وكأن سيدي مولاي يعرف جيدًا المكان المقصود، عند الباب الرئيسي للجناح أوقفنا رجل ستينيّ بسيجارة بين الأسنان قائلاً دون أن يرفع نظره من جريدةٍ مفتوحةٍ على صفحةِ الكلماتِ المتقاطعة:

- عندكم موعد؟

- الدكتور سليم بن دحمان، من فضلك؟

- الدكتور سليم بن دحمان غائب، إنه في عطلة منذ أسبوع، عفوًا منذ عشرة أيام أو أكثر.

(قلت في نفسي: سليم بن دحمان؟ يا إلهي، هل أنا بمؤسسة النظافة وسط العاصمة، أليس سليم بن دحمان هو المدير العام للمؤسسة كما أخبرَتْني بذلك السيدة رِيمَا عشيقة شفيقة آيت مسعود؟).

بالصدفة وفي اللحظة، وإذا بطبيبٍ شابٍّ مبتسمٍ يُحيِّي سيدي مولاي ويعانقه، ثم يدعوه للدخول، لم يكن الطبيب سوى الدكتور سليم بن دحمان.. لم يرفع الحارس نظره من الجريدة، سحب نفسًا طويلاً من آخر ما تبقَّى من سيجارته، ثم رمى بالعقب قريبًا منه، ثم سحقَهُ بعصبيةٍ بقدمه وهو لا يزال لاصقًا في مربعاته وحروفه.

- تفضلوا.. قالها الحارسُ وهو يبتسمُ مُرحِّبًا بنا!!

أدخلنا الدكتور سليم بن دحمان إلى مكتب صغير يتقاسمه مع طبيبة تجاوزت الأربعين بوجهٍ مليءٍ بالبُثُور مُغطًّى بطبقة من الزَّغَب الكثيف البادي فوق شفتها العليا وعند الصدغين، حيَّتْنا بأدبٍ

ثم غادرَتْ على الفور المكتبَ قائلةً للدكتور سليم بن دحمان: "أنا اليوم في المناوبة جناح رقم (5)، حتى الساعة الثامنة من صباح غِد"، سحبتِ الباب مِن خلفها واختفَتْ في مِشيةٍ أنثويةٍ مثيرةٍ متناقضةٍ مع ملامح وجهِهَا الذكوري. انتبهتُ، الساعة تشير إلى الثالثة زوالاً تقريبًا، لقد مرَّ الوقت بسرعة.

حُرّ بن يقظان في حيرة!!

لم يسأل سيدي مولاي لا عن جنينة ولا عن جميلة، بل بدأ يتحدث عن الأحوال الجوية التي تغيرَتْ بسرعةٍ، وأيضًا عمَّا آلت إليه هذه المنطقة، منطقة سهول المتيجة التي كانت أيام الاستعمار الفرنسي تكفي لإطعام فرنسا وأوروبا قمحًا وغلالاً ونبيذًا، لقد غزا الإسمنت الأراضي الفلاحية، وأُحرقت الجنَّة التي كانت متربعةً على هذه الضواحي.

دقَّ الهاتف، اعتذر الدكتور سليم بن دحمان لمقاطعة سيدي مولاي بالردّ على المكالمة التي كانت سريعةً بشأن ملف مريض هرَبَ الليلةَ الماضيةَ من المستشفى وقد تم العثور عليه ميتًا على حافة الطريق الوطني رقم واحد عند مدخل مدينة غيليزان.. هذا ما فهمتُه من المكالمة التي يبدو أنها لم تُحرِّك ساكنًا لدى الدكتور الذي أغلق الهاتف وعاد ليُعلِّق: "كل هذا الخراب الذي لحق بالفِلاحة والأرض الزراعية سببه الثورة الزراعية، الدولة تريد أن تضع يدها على كل شيء، على رقاب العباد تراقب أنفاسهم وتعُدُّها، وتراقب الأرض التي يمشون عليها أو يعيشون منها ولها".

- "هو هذا؟".. قالها الدكتور وألقى عليّ نظرةً خاطفة.

- "نعم".. أجاب سيدي مولاي والتفت إليَّ، تأكدتُ بأنني أنا المقصود لا أحدَ غيري من هذه الـ "هو هذا؟".

أخرج الطبيب إضبارة زرقاء كرتونية من خزانة حديدية صدِئَت أقدامُها، ثم أخرج نظارةً من جيب مِئْزره الأيمن، ثم توجَّهَ إليَّ بالسؤال:

- الاسم:

- اللقب:

- مكان وسنة الميلاد:

- اسم الأم:

- اسم الأب:

- فصيلة الدم:

- عنوان الإقامة:

كنت أجيبُ دون أن أعرف لماذا هذا الاستنطاق شبه البوليسي؟ وما الهدف من هذا الملف أساسًا؟ سيدي مولاي يتابعني بنظره دون كبير أيِّ اكتراث، ثم استدار وبدأ متابعة الحركة من خلال النافذة المفتوحة، ذكَّرَني ببشير لارتيست ومربعه السمائي.. دون شك إنه يُفكِّر في مصير ابنتيه جنينة وجميلة، مصيرهما في مستشفى بئيس كهذا، وهو الذي لَكَمْ تمنَّى مصاهرة أعيان المدينة من خلال هاتين البنتين اللتين إلى عمر البكالوريا كانتا محطَّ عيونٍ كثيرة.

يعجبني اسم جنينة وجميلة أيضًا، أنا حُرّ بن يقظان..

قال الدكتور سليم بن دحمان لسيدي مولاي بعد أن حرَّرَ تقريرًا على الصفحة الأخيرة من الإضبارة:

- تحسُّبًا لأي رقابة لاحقة ومباغتة، علينا الاحتفاظ به ولو شكليًّا لأسبوع كامل، أن نُبْقِي على الأثر في المستشفى.

- لا بأس.

شعرت بارتجاف، وفي لمح البصر تساءلت: "أسيكون مصيري أنا الآخر كمصير جنينة وجميلة دون أن أعي ذلك.. ثم بدأتُ أستعيد تفاصيل ما قمتُ به خلال أيام الأسبوع كلها كي أتأكد من أنني لم أفقد ذاكرتي ولا وعيي. الواقع أنني لم أستطع أن أتذكَّر شيئًا، فجأةً شعرتُ بنفسي مُشتَّتًا، حُرًّا، كلما دققتُ التفكير في أيام الأسبوع أجدني لا أستعيد سوى جزءٍ من رحلة اليوم ما بين العاصمة وهذا المكان الذي أنا فيه، نسيتُ كلَّ شيء، حتى اسم الطبيب الواقف قبالتي نسيتُه، وحدَهما اسما جنينة وجميلة ظلاَّ ملتصقَيْن في رأسي، وتذكَّرتُ أنني بحثتُ عنهما من خلال زجاج السيارة ونحن نعبُر حديقة المستشفى.

حائر بن يقظان أو حُرّ بن يقظان بدون أثداء الغزالتين، أنا!

شعرتُ بلساني يابسًا في فمي، خشبًا، وبجسمي واقفًا حجراً بدون روح.. غادرَ سيدي مولاي المكتبَ بعد أن وضع في كفي مجموعةً من الأوراق النقدية، أخذتُها منه ثم وضعتُها في جيبي، شعرتُ بكفِّي يسيل عرقًا مُزيّتًا.

تركني الدكتور سليم دحمان وحدي وخرج لمرافقة سيدي مولاي حتى السيارة، فجأةً عادت طبيبة المناوبة التي تتقاسم المكتب مع الدكتور سليم بن دحمان، بدت لي الآن رقيقةً وكأنما حلقَتْ أو نتفَتْ شعر وجهها، التفتت إليَّ قائلةً: لماذا أنت واقف؟ ثم سحبت الكرسيّ عند قدميّ، لم أتحرك ولم أجلس، استدارت، من شكل ظهرها بدت لي شبيهةً بجنينة أو جميلة، لا فرق بينهما، أخرجَتْ كَوْمةً من الملفات البالية، ثم بدأت تتصفح الواحد بعد الآخر وهي تدندن أغنية لإيديت بياف:

Non, rien de rien, non, je ne regrette rien
Ni le bien qu`on m`a fait, ni le mal
Tout ça m`est bien égal

أعجبني صوتها، أنا الآخر أحفظ كلمات هذه الأغنية، بدأتُ أردِّدُها معها بصمتٍ في داخلي، كان إيقاع الأغنية يتغير مع تبدُّل الملفات بين يدَيْها. تمنيتُ ألا تعثر على مبتغاها كي تظلّ تُغنِّي علَّنِي بذلك أستعيدُ ذاكرتي.. بدأتُ أبحث عن ذكرى مرتبطةٍ بهذه الأغنية أو بإيديت بياف، لم أجد سوى ذكرى تلك الليلة الأخيرة التي قضيتُها في سرير جنينة وجميلة، كانت الأولى تستعدّ لعرسها، وكانت الثانية تُغنِّي كلَّ الليل هذه الأغنية.

قالت الطبيبة: "هل تعرف هذه الأغنية، إني أراك تُردِّدها معي بشكل صحيح، ويبدو أنك تحفظ كلماتِها جيدًا؟ الواقع أنني لم أنتبه إلى أني كنتُ أغني مع الطبيبة أغنيتها المفضلة كما تقول وبصوت مسموع، أنا الذي لم يُغنِّ مرةً واحدةً في حياته أمام شخصٍ ولم يحدث معي حتى أمام مرآة الحمّام. أخرجَتْ حزمةً أخرى من الملفات، وكما فعلَتْ مع الأولى تفعل مع الثانية دون أن تسقط أغنية إيديت بياف من فمها، ولا من فمي كما يبدو.. حين عثرت على الملف المطلوب سكتت، خفَّتْ من الصمت، وشعرتُ بصفيرٍ في أذني، تمنيتُها ألا تغادر، قلَّبت أوراق الملف بعض الوقت، ثم أخرجَتْ ورقةً بيضاءَ وكتبت عليها بعض سطورٍ وضمَّتها إلى الأوراق الأخرى، ثم نظرَتْ إليّ

قائلةً: "مرحبا بك في مؤسستنا فرانتز فانون الشهيرة" (قالتها بفرنسية دون لكنة). انتبهتُ إلى أنها كانت تحمل الملف الذي سجَّل عليه الدكتور سليم بن دحمان معلوماتي الشخصية، لم تعد الطبيبة تغني، سقط اللحن من على لسانها.

- اسمي الدكتورة نعيمة عارف.

أردتُ أن أُعرِّفها على نفسي، لكنِّي أدركتُ أن بين يدَيْها مِلفًّا فيه كل شيء، مع ذلك أضفتُ -لست أدري لماذا قلت ذلك؟-:

- أنا مثلك أُفضِّل الأغاني الفرنسية الكلاسيكية، كانت جميلة وجنينة تُغنِّيان ريبرتوار إيديت بياف بشكلٍ مضحكٍ وخفيفٍ ومراتٍ حزين ومتوتر.

- الثورة الزراعية لم تترك لنا الأغاني الجميلة ولا الحلم الجميل أيضًا، كل شيء تساوى في الهاوية، ما عُدْنا نسمع في الإذاعة سوى أغانٍ ثوريّة وكأننا في حرب متواصلة.

بصعوبة أقفلتْ باب الخزانة الحديدية ذات الأقدام الصَّدِئَة، حملَتْ فوق نهدَيْها الملف المسجل عليه معلوماتي الشخصية، ثم غادرَتِ الغرفة، وهي تختفي في صوت كعب حذائها العالي نسبيًّا، شعرتُ بعطرها الذي ذكَّرني بعطر سلوانة.. من هي سلوانة؟ ثم جلستُ على الكرسي كي أقاوم رغبةً في التبول اجتاحتني بشكل عنيف مفاجئ.

- انسحب النهار أو كاد، في شهر نوفمبر يبدو اليوم قصيرًا جدًّا، والليل يسقط بسرعة على العاصمة وضواحيها، قلقٌ يسكنني من تأخُّر عودة الدكتور سليم بن دحمان، تذكرتُ الحارس الذي كان غارقًا في الكلمات المتقاطعة، والذي قال لنا ونحن نهمّ بدخول البناية: "الدكتور سليم بن دحمان غائب، في عطلةٍ منذ أسبوع، عفوًا منذ عشرة أيام"، ربما يكون الطبيب الذي استقبلنا ليس هو الدكتور سليم بن دحمان؟ وأن الدكتور سليم بن دحمان غائب، في عطلة منذ أسبوع، عفوًا منذ عشرة أيام؟ قلتُ في نفسي: سأظل هنا في المكتب أنتظر عودته ولو بعد العطلة طويلةً. الكرسي غير مريح، بل إن رغبتي في التبول هي التي أشعرتني بذلك.

(سليم بن دحمان؟ يا إلهي!! هل أنا بمؤسسة النظافة وسط العاصمة، أليس سليم بن دحمان هو المدير العام للمؤسسة كما أخبرَتْنِي بذلك السيدة رِيمَا عشيقة شفيقة آيت مسعود؟).

عاد الدكتور سليم بن دحمان، إذن الدكتور سليم بن دحمان ليس في عطلة، ولكن من أدراني أنه هو الدكتور سليم بن دحمان وليس الدكتور عبد الواحد شريفي؟ أنا أعرف دكتورًا يشبه هذا الذي أمامي ولكن باسم آخر هو الدكتور عبد الواحد شريفي، وهو طبيب، إضافةً إلى حُبّه لمهنة طب الأسنان التي يمارسها منذ عشرين سنة تقريبًا، إلا أنه يحب قراءة الكتب وجمعها ومغرم بألف ليلة وليلة، ويحب شرب النبيذ الذي كان يجلبه من معصرات مدينة عين تموشنت والمالح وحاسي الغلة وشاباط، لا يعرف العربية لكنه يحب أغاني الشيخة الريميتي كثيرًا، ولا يستمع إليها إلا مع أكل المرقاز أو السجق مع قِنِّينَة نبيذٍ أبيض.

مات الدكتور عبد الواحد شريفي ذات صباح؛ إذ رافق ابنته عالية إلى مركز امتحان البكالوريا، ثم رجع إلى المنزل، استلقى على سريره كي يأخذ قليلاً من الراحة؛ فقد كان مناوبًا الليلة السابقة بمصلحة الاستعجالات، ثم لم يفق، دقُّوا عليه الباب نحو الساعة الحادية عشرة، وحين لم يرُدّ، كسروا الباب فوجدوه معانقًا المخدة وقد أسلم الروح.. حكت لي هذه القصة الطبيبة التي جاءت بديلاً عنه، حين سألتُها عن غيابه، كانت هي الأخرى متأثرةً برحيله.

- فيمَ تفكر؟ الأمر بسيط جدًّا، هي إقامة لأسبوع بيننا أو عشرة أيام، وبعدها تتخلَّص من سجن سنتين عسكريتين كاملتين.

طلبَ سيدةً في الهاتف، لم تتأخر هذه الأخيرة، فبعد لحظات قليلة اقتحمَتِ المكتب تجُرّ في رجليها نعلاً مطاطيًا أكبر من قياسها، وتمضغ علكةً بطريقةٍ مثيرة، كانت تبحث عن شيء في جيبها وهي تسمع بتركيزٍ كلام الدكتور سليم بن دحمان دون أن ترفع نظرها إليه (لستُ متأكدا من اسم الطبيب؟ الحارس أكَّدَ لنا أن سليم بن دحمان في عطلة).. شعرتُ براحة وحرية وأنا ألاحظ اختفاء سيدي مولاي.

- حضِّرِي له سريرًا في حجرة المداومة..

- معنى ذلك أنني سأقضي الليلة هنا، قلتُ في نفسي:

لم أنزعج لذلك؛ فأنا في المكان المناسب، أنا حُرّ بن يقظان؛ لأنني أشعر وكأنني فقدت ذاكرتي، فأنا بحاجةٍ إلى هذا المكان، لقد حاولتُ أن أتذكر ما قمتُ به خلال أيام الأسبوع الفارط فلم أتذكَّر سوى رحلة اليوم ما بين العاصمة ومستشفى فرانتز فانون بالبليدة، ولم أتذكر سوى كلمات أغنية إيديت بياف الشهيرة "Non, je ne regrette rien"، ثم هنا إنني أشعر وكأنني سأنام في غرفة جنينة وجميلة باعتبار أنهما مقيمتان في هذا المركز الاستشفائي منذ فترة، وربما هي الفرصة لرؤية الغزالتين.. أنا حُرّ بن يقظان، لم أتجرأ يومًا على زيارتهما منذ أُدخلتا هذه المؤسسة العلاجية؛ خوفًا من سيدي مولاي الذي كان يرفض أن يسمع أحدًا يتحدث بأن له بنتَيْن في مستشفى المجانين.

غادرَتِ السيدة صاحبة العلكة والنعل المطاطي، وبمُجرَّد خروجها طلبتُ من الدكتور أن يسمح لي بالذهاب إلى المرحاض، سلّمني مفتاحا صغيرا سحبه من قجر المكتب، واشار عليّ بالاتجاه، إنه بيت الراحة المخصص للأطباء، أسرعتُ الخطو نحو الرُّوَاق، فتحتُ الباب بعد صعوبة في إدخال المفتاح الصغير في عين القُفْل.. حين دخلتُ، تنفَّستُ الصُّعَداء رغم الرائحة الكريهة، وجدت طبيبةً هناك واقفة أمام المرآة تعدل ماكياجها وتسريحة شعرها، ابتسمَتْ لي، أُصبتُ بحَرَج، اعتقدتُ بأنني أخطأتُ الباب فدخلتُ مرحاض النساء، أردتُ أن أتراجع لكن ضغط المثانة لم يترك لي الاختيار؛ فأسرعتُ إلى الداخل وأفرغتُ كل ما تجمَّع منذ الصباح، كنت أبول والطبيبة تُردِّد أغنية "أفاينوفا" القبائلية الجميلة، أحفظ هذه الأغنية التي كان يُغنِّيها لنا مناضلو حركة الثقافة الأمازيغية في كثيرٍ من المناسبات السياسية أو النشاطات الثقافية: كعيد الطالب، أو مطلع السنة القبائلية الذي يصادف 12 يناير.

قبل أن يخرج الدكتور سليم بن دحمان الذي ليس الدكتور سليم بن دحمان، سلّمني إلى الطبيبة ذات اللحية الزَّغَبِيّة الخفيفة، في غرفة المناوبة في الطابق الأول من البناية رقم (5)، قبَّلها على وجنتَيْها بتحفُّظ، وقبل أن يخطو نحو السلّم قالت الطبيبة: "لا تحمل هَمًّا يا دكتور سعود"؛ إذن هو ليس الدكتور سليم بن دحمان، إنما هو الدكتور سعود، أما الدكتورة فاسمها -كما هو مكتوب على آرمة نحاسية صغيرة موضوعة فوق مكتبها- "الدكتورة فوزية محرق".

في الغرفة التي أقف فيها تائهًا، يوجد سريرٌ حديديٌّ بطابقَيْن عليهما مُطرحان قديمان مُغطَّيَان بإزاريْن نظيفَيْن شديدَيِ البياض، أو هكذا بدَيَا لي في غبش الغرفة وبداية نزول الظلام شيئًا فشيئًا على المكان.

قالت لي الدكتورة فوزية محرق:

- اسمي الدكتورة فوزية، لكنَّ الجميع هنا ينادينى فازو؛ الأطباء والممرضات والمقيمون والعمال..

لم أُعلِّق، ابتسمتُ ابتسامةً خفيفةً، شعرتُ وأنا أسمع كلمة "فازو" بجوع قاتل، وكأنما سمعتُ نداء معدتي الخاوية، فأضافت:

- سنتناول العشاء في مطعم الأطباء والممرضات في الطابق الأرضي.

شمَمْتُ على الفور رائحة الأكل تصعد من المطبخ متسلقةً درجات السُلَّم، جلستُ على طرف السرير الذي في الأسفل، وبدأتُ أتابع حركات فازو، أردتُ أن أسألها عن طبيعة مرضي العقلي؟ المرضى من هذا النوع لا يسألون عن طبيعة مرضهم، ثم بدأتُ أمتحنُ قوة ذاكرتي وصحة عقلي: تذكرتُ أمي سلوانة، وتذكرت اسم أسافو وأبي، وتذكرتُ اسم ياسر الفلسطيني الذي هاجر إلى أمريكا، وتذكرت اسم أبراهام السرفاتي وفيرْنونْدْ إيفْتونْ وليالي مع جنينة وجميلة، واستعدْتُ صورة لالة مولاتي وهي تتبادل والداعية الأزهري نظرات ساخنة، ثم فجأةً تذكرتُ شيئًا لم أتذكَّرهُ إلا هذه المرة: تلك الليلة التي وجدتُ فيها لالة مولاتي نائمةً إلى جواري على نفس السرير وهي تحتضنني وتُقبِّلني وتقول أمورًا لم أتبيَّنها، أخذتُها في أحضاني وقلتُ لها أشياءَ لا أذكُرها.

منحوني لباسًا أزرقَ أكبرَ من مقاسي بكثير، مع ذلك شعرتُ فيه براحة وأنا أتخلَّص من ثيابي العادية الضيّقة، قادني مُمرِّض طويل القامة بوَشْمٍ على ساعده يُشبِه في شكله وحركاته مُصارعي الثيران الذين كنت أشاهدهم على قناةٍ تلفزيونيةٍ إسبانيةٍ آخرَ الليل حين تُقفل التلفزة الوطنية وتتوقف عن الإرسال في حدود منتصف الليل، قادني إلى جناحٍ آخرَ، جناح مرقد الرجال، الجميع هنا ينادونه باسم الماتادور، نوافذ البناية عليها شبابيك حديدية، من خلف القضبان يتابع المقيمون من المرضى العالم الخارجي طالبين من أيّ أحدٍ يمرُّ بمحاذاتهم أن يمنحهم قطعةً نقديةً أو أيَّ شيءٍ آخر؛ قطعة خبز، أو حلوى، أو قِنِّينَة ماء، أو قطعة شكولاتة.

حين دفع بي الماتادور مُصارع الثيران بعنف داخل مرقَد المرضى الجماعي، وقبل أن يخطُوَ خطوةً سكت الجميع كأنما أصابهم بَكَمٌ، واصطفُّوا وقوفًا مرتجفِين، كلُّ واحدٍ أمام سريره، أثار فيَّ الموقفُ فزَعًا أنا الآخر.

قال لهم بصوتٍ عالٍ:

- هذا (وأشار إلي) لا أحدَ يقترب منه؛ إنه مثل أخي.

شعرتُ باعتزازٍ وأنا أسمع هذا الكلام من فم هذا الماتادور، شعرتُ بقوة، بالثقة في النفس، أشار إلى سرير عند المدخل، قائلاً:

- هذا سريرك، صاحبُهُ فرَّ قبل يومين من المؤسسة، ووُجِدَ البارحةَ فجرًا ميتًا على الطريق الوطني رقم واحد، عند مدخل مدينة غليزان.

لم أُعلِّق، نظرتُ إلى الماتادور، اكتشفت أن يده اليمنى بها أصبعًا سادسة إضافيا، أما اليسرى فبها خمسة أصابع فقط.. شعرتُ بتنمُّل في قمة رأسي وفي ركبتي، أفواه المرضى مفتوحة جميعها بأسنان ناقصة أو مسوسة أو مهشمة، أعمارهم مختلفة؛ فيهم الشاب الذي في العشرين أو أقل، وفيهم الشيخ الذي تجاوَزَ السبعين.. على كلٍّ فالأعمار الحقيقية يُخفِيها المرض.

بمجرد أن غادر الماتادور القاعة هجَمَ عليَّ الجميع يطلبون الحلوى والسجائر والحشيش والجنس، وبعضهم يبكي أمَّه أو طفلَه أو بغلتَه أو قريتَه أو امرأتَه.

صرختُ ثلاثَ مرَّاتٍ:

- الماتادور.. الماتادور.. الماتادور..

عادوا للاصطفاف بنظام واقفين قُدَّام أسرّتِهم كتلاميذ المدارس، لقد عَثَرتُ على كلمة السر التي تُوقِف شغبهم وتجعل مني وريثًا شرعيًّا لقوة "أخي" الماتادور العجيبة.. هي المرة الثانية التي أجدني فيها أبحث عن قوةٍ للتحكم في العباد، في الآخرين، المرة الأولى في سنوات الجامعة حين كنتُ شغوفًا بصديقي ياسر الفلسطيني وبالكتاب الأحمر الصغير لماوتسي تونغ، وكنت أتخيّلُنِي زعيمًا يحكم بلدًا كالصين بمليار نسمة.. اليوم هأنذا بكلمةٍ واحدةٍ "الماتادور" أُركع قاعةً كاملةً من المجانين.. شعرتُ بنوعٍ من الزهو وأنا أتفوّق، آمُرُ وأَنْهَى، كلامي مسموعٌ وأمري مُطَاعٌ.

تمدّدْتُ على السرير الذي جغجغت مفاصله، بعد بضع دقائق أضاء مصباح البهو القريب من سريري الوحيد المُضَاء، وجه شبحٍ واقفٍ أمامي، شابّ بلحية غير كثيفة، بدا خجولاً، بعد تردُّدٍ قال

لي:

- لماذا لم تُحضِر لي معك خالتي اليامنة؟ أنا أحبها كثيرًا وهي أيضًا تحبني، إنها تسكن قريبًا من بيتكم، باب بيتها مقابل باب الجزار الذي يُعلِّق رؤوس الكباش والنعاج ورأس عجل أسود على عتبة محله المصبوغة بالأحمر، جميع هذه الرؤوس كانت تظل مفتوحةَ الأفواه، كنتُ أخاف منها لأنها كانت تضحك مني وتقول لي بصوتٍ عالٍ كلما مررتُ أمام باب الجزار "سنقْضِم أذنَيْك"، كنتُ أخاف منها ولا أحدَ كان قادرًا على حمايتي من هذه الأفواه المفتوحة الكاشفة عن أسنان مسوسة، وفي الليل كنت أتبوَّل في الفراش وفي الصباح كانت أمي تضربني ضربًا مبرحًا على فِعلتي تلك وتُعيِّرني بكلامٍ قاسٍ، وترسلني عند خالتي التي كانت تُحبّني كثيرًا وأحبها أكثر، لكنها ماتت، ذات يوم بلعَهَا رأس العجل المُعلَّق عند مدخل محل الجزار الذي نسيتُ اسمه، لكني أتذكَّر أنه كان بِشاربَيْن كبيرَيْن متوحشَيْن وله جهاز راديو يظل مفتوحًا يتكلم دون توقُّفٍ عن الحروب وإهداء الأغاني العاطفية.

كان يتكلَّمُ واقفًا ويرتجف، ثم تبوَّلَ في سرواله وانصرف.. حين عاد إلى سريره بدأتُ أتساءل: من تكون خالته اليامنة هذه؟ ولماذا أنا لا أتذكرها؟ ثم بدأتُ أسترجع صورة جزار قريتنا الذي اسمه موحْ أُو رابَحْ، وكان يقوم مقام إمام المسجد في صلاة الجمعة والأعياد، وهو الذي يتولى ذبح أضاحي أهل القرية يوم عيد الأضحى، لم يكن له شاربان، وكان أطرَشَ لا يسمع، ولم ألاحظ يوما مِذياعًا في قصّابته.

مع ذلك أخذتُ أسترجع قائمة النساء اللواتي يحملن اسم اليامنة، بعد تعبٍ وقبل أن أنام عَثَرْتُ على واحدة، إنها اليامنة المجاهدة التي تحولَتْ إلى مُغنِّية أعراس بعد الاستقلال، كانت تقول: "خرجتُ أيام الثورة لضرب الرصاص، وخرجتُ بعد الاستقلال لضرب البِندير"، حين وجدتُ اليامنةَ ضاربةَ البِندير شعرتُ بالسعادة ونمتُ، في الصباح أوَّلَ ما تفقدتُهُ هو مطرحي، خفتُ أن أكون قد تبوَّلتُ فوقَه.

باكرًا دخل الماتادور بيده سوطٌ وعصًا غليظةٌ، حين وقف عند الباب وأرسل شرر عينَيْه في المهجع، نهض الجميع في استعدادٍ شِبْه عسكريّ، مرَّ بين الأسرة مُوزِّعًا دون تمييزٍ ضرباتٍ عنيفةً بالسوط على أكتاف الجميع وصارخًا بكلامٍ بذيء، كنتُ أريد أن أصرخ فيه قائلاً: "أنت لستَ أخي"،

وإذا بالسوط ينزل على كتفي، تنمل ظهري كاملاً، ومثل بقية الواقفين عند أقدام الأسرّة ذات الطابقين، وقفتُ صابرًا متسائلاً: "مَن جاء بـي إلى هذا المكان؟ ولماذا؟".

أنا حرّ بن يقظان..

قال الماتادور بصوتٍ عالٍ:

- اليوم يزورنا وزير الصحة، عليكم أن تكونوا في مستوى الزيارة التاريخية.

التفت إليَّ المجنون البوَّال هامسًا قبل أن يسقط السوط على ظهره وفخذه:

- هل سترافق خالتي اليامنة التي تحبني وأُحبُّها الوزير في زيارته لنا؟

تذكرتُ اليامنة المجاهدة ضاربة البِندير.

قبل أن يسمح لنا الماتادور بمغادرة المرقَد، قال لي بصوتٍ عالٍ:

- أنتَ، اتبعني، الأطباء يريدونك يا "أخي".

شعرتُ بأهميتي العظيمة أمام هؤلاء الفاتحين أفواههم بأسنان مسوسة كرؤوس الخراف والعِجْل المُعلَّقة على عتبة القصابة التي تقابل بيت اليامنة التي تُحبُّ البوَّال، والتي اختلط عليَّ أمرُها بأمر اليامنة ضاربة البِندير في الاستقلال وضاربة الرصاص في زمن الثورة.

عُدْتُ إلى ذات المكتب الذي كنتُ فيه البارحة أو قبل ثلاثة أيام، لستُ متأكدًا من الزمن، استقبلتني الطبيبة التي اسمها الدكتورة فازو، لكني سمعتُ أحدًا يناديها، دكتورة اليامنة؟ نظرتُ من النافذة علَّنِي أجد قصابة الرجل الذي يستمع باستمرار إلى أخبار الحرب ورسائل ما يطلبه المستمعون على أمواج الراديو ويُعلِّق رؤوس الكباش والعِجْل على باب محله المصبوغ بالأحمر.. لا شيءَ في الخارج سوى تلك المجموعة من النساء اللواتي يكنُسن الطريق والساحة والحديقة، وثلاثة رجال يَصبغون الأرصفة بالأحمر والأبيض تحسُّبًا لزيارة الوزير، أو للاحتفال بعيد الفطر.. عيد الفطر؟ انتبهتُ إلى أن سطورًا كثيرةً من الأعلام الوطنية عُلِّقت مكان رؤوس المَعَز والكِبَاش والعِجْل.

ابتسمَتْ لي الدكتورة فازو التي ربما تُشبِه الخالة اليامنة خالة البوَّال، أو اليامنة ضاربة البِنْدير، أو اليامنة ضاربة الرصاص، قائلةً:

- اليوم نستقبلُ زيارةً مهمةً وأساسيةً ومصيريةً يقوم بها معالي وزير الصحة لمؤسستنا الاستشفائية التاريخية؛ ونظرا لثقافتك ومستواك التعليمي، اتفقنا جميعنا في مجلس الإدارة والنقابة أن تتولى أنت قولَ كلمةٍ بِاسم المرضى تُعبِّر فيها عن العناية البشرية والربانية التي تتلقَّوْنَها في هذا المستشفى من قِبل الجميع، من الأطباء والمرضات والممرضين وأعوان الإدارة...

كنتُ أستمع إليها بكل أدب وأُفكِّر في السوط الذي نزل عليَّ شُهُبًا ناريّةً هذا الصباح من يد الماتادور "أخي".. زَغَب لحيتها في ضوء النافذة في هذا اليوم الخريفي بدا كثيفًا وبلونٍ مائلٍ إلى الاصفرار الذهبي، أردتُ أن أقول لها إن ظهري يؤلمني، لكني نسيتُ ألمي بمجرد أن دخل الدكتور سليم بن دحمان، إنه الدكتور سليم بن دحمان إذا ما كان هذا الأخير ليس في عطلة كما قال لنا الحارس هاوي الكلمات المتقاطعة، أما إذا ما كان في عطلة لمدة أسبوع أو عشرة أيام فهذا الدكتور هو مسعود، لم يكلمني الدكتور سليم بن دحمان وكأنه لا يعرفني، كأن لم يسبق أن رآني ورحَّبَ بي في معية سيدي مولاي، كان منشغلاً بزيارة الوزير، ويريد أن يكون أوَّلَ مستقبِلِيه طمعًا في ترقيةٍ ما (هذا ما سمعتُه من الدكتورة فازو وهي تتكلم في الهاتف مع واحدة أخرى، ربما تلك الأخرى تُسمَّى هي أيضًا الدكتورة فازو أو اليامنة، قبل دخوله بقليل).

لقَّنَتني الدكتورة ما يجب أن أقوله في حضرة معالي الوزير باسم المرضى السعيدين جدًّا بمرضهم، وبإقامتهم، وبالرعاية والخدمات التي تُقدَّم لهم من قِبل الجميع.. جاء الماتادور ليرافقني إلى المربع الذي خُصِّص لوقوف المرضى ساعة استقبال معالي الوزير، هناك مربع للرجال وآخر للنساء، لقد تم اختيار عددٍ مُعَيّنٍ من المرضى للاستقبال، الذين لهم أسنان أقل تسوُّسًا وهم في صحية جسدية لا بأس بها، أما الآخرون فقد أُقفِل عليهم في قبو البناية حتى لا يتجرَّأ أحدٌ منهم على مدّ ذراعه أو رأسه من بين قضبان شباك النوافذ ساعةَ مرورِ معالي الوزير.

أخيرًا جاءت سيارات كثيرة، وامتلأ المستشفى ببوليس على الدراجات النارية، وصافرات الإنذار تُزغرد من كل جهة، خِفتُ، كنتُ في الصف الأول في مربع المرضى، تحت حراسة عين الماتادور، شعرتُ برغبةٍ في التبول بمجرد ما رأيت موكب الوزير، تماسكتُ، على بُعد بضعةِ أمتارٍ

ترجَّل الوزير من سيارته السوداء، أولَّ مرةٍ أرى فيها وزيرًا بشحمه ولحمه وابتسامته، كان متأثرًا بمنظرنا، بحثتُ عن البوَّال الذي خالته اليامنة فلم أجِدْه، لم يُسمح له بشرف الوقوف للاستقبال، تخيلتُه جالسًا في القبو في بوله، رأيت الدكتور سليم بن دحمان يزاحم زملاءه من مرتدي المآزر البيضاء ليُسلِّم على الضيف الكبير، مُرفقًا بشخصٍ ضخم، زار الوزير الجناح الذي يوجد به المطعم والمخبر، وقاعةَ رياضةٍ لا تزال مغلقةً، كلُّ ذلك في لمح البصر، ثم عاد إلى الساحة حيث نُصبت له مِنصَّة صغيرة بميكروفون ومُكبِّرات صوتٍ تُشبِه تلك التي تُستعمل لموسيقى الأعراس.

تقدَّمَ معالي الوزير وبدأ يخطب فينا:

"أعزائي، أنتم مستقبل البلد، جيلنا يُسلمكم المِشْعَل، مِشْعَل الثورة فحافظوا على الأمانة، إن هذا المستشفى يحمل اسم واحدٍ من أكبر مجاهدي الثورة الجزائرية، إنه الطبيب والثوري فرانتز فانون الذي اختار صف الثورة ضد الطغيان والاستعمار على الرغم من أنه من جِلْدتهم، كان يعرف أننا كنا على حق وأننا أصحاب البلد، عليكم اليوم وأنتم تعيشون في هذا المستشفى في جزائر حرة مستقلة أن تتذكروا الشهداء والمجاهدين من خلال اسم الدكتور فرانتز فانون. (تصفيق)

إن الثورة الاشتراكية وما جاءت به من سياسة الطب المجاني تفتخر اليوم بما حقَّقَته لجميع المرضى في الجزائر المستقلة.

وباسمي الشخصي، وباسم التاريخ والثورة، أشكُر كل القائمين على هذه المؤسسة الاستشفائية التي هي نموذجٌ عالٍ لاحترام المواطن الجزائري والتكفُّل بهذه الفئة الهشَّة من أبناء هذه الأمة الصُّلبة. (تصفيق)

عاشت الاشتراكية، عاش الطبُّ المجانيّ وعاشت الجزائر اشتراكيةً حُرّةً أبيّة.(تصفيق)

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته".

دوّت التصفيقات من كل الجهات، وصفَّق مربع المرضى من الرجال بمجرد أن أشار إلينا الماتادور بالتصفيق، ومثلنا فعل مربع النساء.

أشار إليّ الماتادور أن أصعد إلى المِنَصَّة لقول كلمةٍ باسم المرضى ترحيبًا بمعالي الوزير.. تقدمتُ نحو معاليه، قام من مكانه وبحنان الأب احتضنني وسلَّم عليّ، وهجمَتْ كاميرا التلفزة

الوطنية عليه وهو يقوم بالسلام عليَّ، ومثلُها نزل علينا رشاش من فلاشات كاميرات التصوير، اقتربتُ من الميكروفون ثم قلتُ بعد تردُّد:

"السلام عليكم..

أنا سعيد كل السعادة بوجودي في هذه المؤسسة الحنونة، شأني شأن جميع سكان هذا البيت العامر بالخير والعطف، ولكني حزين لأنني نسيتُ أن أُحضِر معي اليامنة خالة صديقي، التي تسكن قبالة الجزار الذي يُعلِّق رؤوس الكباش ورأس العجل الأسود على باب قصابته. (صفق معالي الوزير، وصفق الآخرون ومن بينهم الماتادور، باستثناء مربع المرضى الرجال؛ مما أثار حنَق الماتادور، لكنه لم يُخرج سوطه؛ فالمكان والوقت غير مناسبَيْن)

شكرًا لفخامة الرئيس هواري بومدين على زيارته لنا في عين المكان، ونحن نحبك؛ لأنك منحتنا الخبز المجاني والطب المجاني، وجعلتَ علينا الماتادور مشرفًا. (ابتسم الوزير وابتسم على إثره الجميع، ولم يبتسم مربع المرضى من الرجال)، نتمنى أيها الرئيس أن تبقى معنا كي تنعم بما ننعم به مما أمطرتنا به الجزائر المستقلة...".

حين أرسلتُ نظري إلى مربع الرجال من المرضى كان الماتادور غاضبًا يلعب بالسوط في يديه، فسقطتُ على الأرض طالبًا كأس ماء.

في المساء، وأنا مُمدَّد على السرير ذي الطابقَيْن أفكِّر في جنينة وجميلة ولالة مولاتي وسوط الماتادور، في الطابق العلوي ينام رجل ستينيّ بلحيةٍ بيضاءَ ونابٍ ذهبيةٍ صفراءَ هي فخرُه وبهجتُه ورأس ماله، يتم ربطه كل مساء بحبل على مستوى الرِّجلَيْن واليدَيْن حتى لا يسقط من سريره، كلما حاولتُ أن أنظر إليه ولّى بوجهه عني، لم يكلمني منذ نزلتُ ضيفًا بإقامة قصيرة يبدو أنها بدأت تطول.. اليوم بعد أن عُدْتُ من مراسيم الاستقبال خاطبني من فوق قائلاً:

- حُلَّ رباطي يا الروخو.

فاجأني بنبرة صوته ومعرفته بهذا الاسم الذي كنتُ أُلقَّب به صغيرًا في قرية التفاحة، لا أحدَ هنا يعرف اسمي الحقيقي، فما بالك بهذا اللقب الذي أنا شخصيًّا كدتُ أنساه!!

قمتُ من سريري، ساعدني ضوء لامبة الرُّواق القريبة على تفحُّص ملامح وجهه لأول مرة.. هربتُ من عينَيْه ومن نظراته، عدتُ أرتجف، دفنتُ رأسي تحت الغطاء، وبكيتُ.. شعرتُ به كما في الليالي الماضية يحاول أن يفك رِباطه، لكن دون جدوى، تمنيتُ ألا يتمكن من فك رِباطه كي لا أرى وجهه ثانيةً.

قررتُ أن أهرُب في اليوم التالي، وأن أموت كما مات من كان ينام على هذا السرير قبل أن أُقيمَ فيه أنا، مات على الطريق الوطني رقم واحد قُرْب مدينة غليزان، أنا سآخذ الاتجاه المعاكس، سأموت عند بئر خادم أو بوفاريك.. المهم أنني لن أحدِّق النظرَ مرةً أخرى في هذا الساكن في الطابق العلوي من هذا السرير ذي الطابقين.

الذي في السرير العلوي بدأ يتحدث عن امرأة اسمها سلوانة أو حلوانة، وعن النول والسطح بأحواض الأصباغ للصوف، وعن ابنٍ ضيَّعه منذ سنوات دون أن يعرف كيف ضاع من بين يدَيْه.

حرّ بن يقظان!

صمَمْتُ أذني بقوة، ونمتُ، الواقع أنني لم أنَمْ، حاولتُ ذلك، الرجل المربوط هو الذي نام وتركني وحدي، فجأةً انقطعَتْ أنفاسه، لم أكن متأكدًا: هل مات أم نام؟ الأرجح أنه مات، أما أنا فكنتُ أراقب خيوط ضوء الفجر التي تأتي من النافذة، ولأول مرة تمنيتُ لو أن الماتادور جاء مبكرًا أكثر ووزَّع علينا ضرباتِ سوطه لأننا نتكاسل في أسِرَّتِنا، لكني خفتُ أن أسمعه يقول لرئيسه: "وُجد الرجل المربوط في السرير العلوي هذا الصباح ميتًا"، لم أكن أريده أن يموت، ولم أكن أريده أن يظل حيًّا، ولم أكن أريده أن يبقى في هذا المكان، ولم أكن أريده أن يغادر رِباطه من على هذا السرير؟ أنا الذي عليّ أن أهجر المكان.

من جاء بـي هنا؟ ولماذا جئتُ إلى هنا؟

صباحٌ مُمطرٌ على مستشفى فرانتز فانون للأمراض العقلية، أُحبُّ المطر كثيرًا، أمنيتي دائمًا أن أموت في يومٍ مُمطرٍ وأن أُدفَن تحت مطرٍ غزيرٍ كي تنبُت الحشائش بين مفاصلي مع أول أيام الربيع المُوالي، وأن أُدفَن في المربع السمائي الذي يملكه بشير لارتيست.. جاء الماتادور، كان على غير عادته، لم يضرب أحدًا ولم يصرخ في أحد، حتى إن البوَّال الذي لم أُحضر له معي خالته اليامنة علَّق قائلاً: "إن الماتادور فقَدَ خالته التي هي أمه من الرضاعة".

سمح لنا الماتادور بعد تناوُل الفطور والأدوية أن نستمتع قليلاً بمنظر المطر من تحت أشجار الصفصاف العتيقة، كان المنظر جميلاً، وإذا بسيارة مرسيدس تقطع الساحة، تنعطف نحو البناية رقم 5، إنها سيارة سيدي مولاي، هل تذكَّرني وهو الذي تنازَل عني فعاد ليتسلَّمني، أم أنه تذكَّر التوأم جنينة وجميلة؟

أسرعتُ خلف السيارة، حاول الماتادور أن يمنعني فتفوقتُ عليه لأن خالته اليامنة أمه من الرضاعة التي كان يستمد منها قُوّته ماتت، قبل أن تتوقف السيارة كنت عند بابها منتظرًا نزول سيدي مولاي.

لم يكلمني..

صعد السلّم نحو الطابق الأول، أما أنا فظللتُ واقفًا مُتسمِّرًا عند باب السيارة أضحك وأضحك وأضحك، سعيدا تحت المطر، ولكني سكتُّ فجأةً حين تذكرتُ الرجل المربوط في السرير العلوي، فوق سريري، هل كان حيًّا أم ميتًا؟ لستُ متأكدًا من موته ولا من حياته؟ فكَّرتُ في العودة إلى المرقَد الجماعي لرؤية الرجل الذي خاطبني باسم "الروخو" وهو اللقب الذي ظلَّ لاصقًا بـي سنوات الطفولة وحتى المراهقة ولم أتخلَّص منه إلا حين غادرتُ قرية التفاحة إلى العاصمة، وبعد سنواتٍ حين سقط مني هذا اللقب ونسيتُه شعرتُ وكأنني عارٍ، وأنه كان كالثوب الذي يسترني، حين ناداني الرجل المربوط إلى سريره بـ "الروخو" فرحتُ، شعرتُ وكأن يدًا حنونًا غطَّت عُريِي ودثَّرت برودةً تسكن عظامي، كأنني عدتُ أنا.. عاد سيدي مولاي حاملاً ملفًا بين يديه، فعدلتُ عن فكرة الرجوع إلى المرقَد خوفًا من أن يرحل ويتركني هنا بين يدي الماتادور.

ركبتُ إلى جانب سيدي مولاي في المقعد الأمامي، نظر إليَّ وأنا بلباسي الأزرق، لباس المريض العقلي، ثم تبسَّم، وعلَّق بجُملة: "أنت هكذا أفضل"، ثم أردفَ قائلاً: "الجميع شاهدَك البارحةَ على شاشة التليفزيون في نشرة أخبار الثامنة إلى جانب معالي وزير الصحة، لقد أصبحتَ مشهورًا".. شَعَرتُ بخجلٍ من لباسي، منّي، حتى لباسي الذي دخلتُ به المستشفى تركتُه في كيسٍ أسفلَ السرير، سيستولي عليه الماتادور وسيقول للمرضى إنني هربتُ من المستشفى، وإنهم عثروا عليَّ ميتًا على قارعة الطريق الوطني رقم واحد أو اثنين..

سارت بنا السيارة بعض الوقت في طريق ثانوي بلدي لتلتحق بالطريق الوطني المؤدي إلى العاصمة، لكننا لم نعبُرْ سوى بعض كيلومترات حتى انحرفَتْ ثانيةً لتغادره نحو طريقٍ فرعيٍّ آخر، بعض مئات الأمتار وإذا نحن أمام ثُكْنة عسكرية كبيرة والحرس من كل جهة على السور الذي يحيط بها، مع ذلك يبدو أن سيدي مولاي على موعدٍ مع أحدهم، طلبَ منه أحد الحراس أن يُوقِف السيارة في موقفٍ خارجيٍّ، عند الباب الرئيسي للثُّكْنة، أوقفَ السيارةَ كما طلب المُجنَّد الذي بمجرد أن شاهدني نسيَ حتى سيدي مولاي وعلَّقَ بصوتٍ مسموع: "شاهدناك البارحةَ في نشرة الأخبار، كنتَ أجملَ من الوزير".

ترجَّل سيدي مولاي وتركني بالسيارة، بعد دقائق اجتمع حولي مجموعة من المجنَّدين الشباب وقد أثارهم لباسي الأزرق، ولكنهم بمجرد أن عرفوا أنني أنا مَن كان على شاشة التليفزيون البارحة سكتوا، خافوا، فنشرةُ أخبار الثامنة لا تنقل صُوَرَ كل من هبَّ ودبَّ، فمن رضَعَ الحظَّ في حليب الغزالة هو من "يخرج" في التليفزيون الوطني، ومن "خرج" في نشرة الثامنة فقد بلغ مرتبةً مهمةً في المجتمع.

أنا حُرّ بن يقظان!!

لم أستطع التخلص من صورة الرجل المربوط بالحبل في السرير العلوي، فوق سريري، وتأسَّفتُ لأنني لم أتمكَّن من العودة لتفقُّده كي أعرف ما إذا كان قد مات أو أنه لا يزال حيًّا يعوي كالذئب طول الليل مناديًا على "سلوانة" أو حلوانة، ولا سلوانة تجيب ولا حلوانة، وحدَه الماتادور مَنْ يعرف كيف يجيب!!

يتكاثر عدد الشباب المجنَّدِين حول السيارة وهم ينظرون إليَّ باستغراب ويتبادلون الضحكاتِ فيما بينهم.

أخيرًا وبعد انتظارٍ عاد سيدي مولاي ليُخلِّصني من هؤلاء المجنَّدِين الذين يُطَوِّقون السيارة وهم يطلقون سلسلةً من النِّكات مشيرين بأصابعهم إليَّ، كان يحمل بين يديه ظرفًا ورقيًّا متوسط الحجم، انطلقتِ السيارة، ظل ساكتًا، خرجنا من الطريق الفرعي لندخل الطريق الوطني ثانيةً في اتجاه العاصمة، حركة السير خفيفة، أدار قُفْل الراديو، لا شيء سوى أخبار تدشين القرى وتصريحات الوزراء بأن الجنَّةَ هي الجزائر والجزائر هي الجنَّة.

أدركنا المنزل في أقل من ساعة، على طول الطريق لم نتبادل كلمةً واحدةً، في ذلك الصمت شَعَرْتُ برغبةٍ في النوم دون انتظار الماتادور في الصباح الباكر.

رَكَنَ السيارة على الرصيف، حين دخلتُ استقبلتني لالة مولاتي في البهو بالبكاء والنحيب وكأنني عدتُ من موتٍ، طلعتُ من قبرٍ، تُقبّلني وتُعَيد وتتمنَّى لي الشفاء.

حين جلسنا ثلاثتنا في الصالون، مدَّ إليَّ سيدي مولاي الظرف قائلاً:

- "مبروك عليك".

لم أفهم، فضَضْتُ الظرفَ تحت أعين لالة مولاتي وسيدي مولاي، وإذا بـي أجدُ بطاقةَ "الإعفاء من الخدمة العسكرية بحجة المرض العقلي".

زغردَتْ لالة مولاتي على جنوني.

في اللحظةِ سكنني وجه الرجل المربوط بحبلٍ في السرير العلوي، فوق سريري، وهو يقول لي: "سامحني يا ابني".

و صرخت عالياً: أنا حُرّ بن يقظان يا أبـي.

الجزائر مارس 2017